دار روح منشورة
للنشر الإلكتروني

رواية

أُريد حرباً

آية رأفت

نوع العمل: رواية

اسم العمل: أريد حرباً

اسم المؤلف: آية رأفت

الناشر: حروف منثورة للنشر الإليكترونى

الطبعة: الأولى فبراير 2016

تصميم الغلاف: مروان محمد

تدقيق لغوى: علياء عبد الغنى

تفضلوا بزيارة موقعنا حروف منثورة للنشر الإليكترونى من خلال الضغط على الرابط التالى:

http://herufmansoura2011.wix.com/ebook

كما يمكنكم متابعتنا من خلال صفحتنا الرسمية على الفيس بوك من خلال الضغط على الرابط التالى:

http://facebook.com/herufmansoura

كما يمكنكم مراسلاتنا بأعمالكم على الإيميل التالى:

Herufmansoura2011@gmail.com

دار حروف منثورة هي دار نشر إلكترونية لخدمات النشر الالكتروني ولا تتحمل أي مسئولية تجاه المحتوى الذي يتحمل مسئوليته الكاتب وحده فقط وله حق استغلاله كيفما يشاء

رواية

أريد حرباً

آية رأفت

" أيها الماضي! لا تغيِّرنا كلما ابتعدنا عنك!
أيها المستقبل! لا تسألنا: من أنتم؟ وماذا تريدون مني؟ فنحن أيضاً لا نعرف.
أيها الحاضر! تحمَّلنا قليلاً. فلسنا سوى عابري سبيل ثقلاء الظل ..! "

محمود درويش

إنها الثانية ظهرا.. حان الموعد المنتظر، انتظرناه لسنوات، انتظره شعب بأكمله و أُمة بأسرها، ما عاد يفصلنا عن تحقيق الحلم شئ، سنحقق النصر هذة المرة، تلك الشمس الملتهبة ما هي إلالهيب أنفاسنا الحارة، و هذة الأصوات ما هي إلا دقات قلوبنا المكلومة..

بالأمس فقدنا الكثيرين، و الأهم أننا فقدنا أنفسنا، استسلمنا لهزيمة، استطاعت أن تجعل منا شيوخا و نحن في ريعان الشباب، و قد جاء اليوم لنُحيل هذة النكسة إلى إنتصار، لنعيد النفوس الضائعة، و نحيي الشباب الراقد، أتى اليوم لنلقى بالذل و الخزلان الرابض بداخلنا.

أردتُ كثيراً أن أنال الشهادة كما نالها أخي في 67 و اليوم ربما سأحظى بها و لكنني سأنال شرفها و أنا محقق الإنتصار.

اليوم و هو السادس من أكتوبر.. العاشر من مضان، سيُخلَّد في التاريخ كأعظم إنتصار، و سيحتفل به الكثيرون.. زهوا و فخرا بأبناء ضحوا من أجل الوطن.

أراها أمامي صورتها تتلألأ في ضوء الشمس.. فتزيد من الضياء، و صوتها يعلو صوت المدافع.. فيزيل الخوف ليحل محله الأمان، كم هو لذيذ هذا الشعور؛ الشعور بالأمان، شعور لم استطع الحصول عليه إلا الآن و أنا وسط القنابل و المدافع..

إنها معي الآن تتحدث.. و تقول " انتصر و عد سريعا.. سأبقى في الإنتظار.."

كم هي قوية تلك الكلمات، أستمد منها القوة في وجه هؤلاء الأشرار، أقف بثبات، أواجه بتحدى، و أؤمن بالإنتصار.

أتذكر لحظة لقائنا الأولى فأتشبث أكثر بالحياة، و يعلو صوتي فوق كل الأصوات.

أتذكر أول مرة أسمعها من فمك العذب، فأزداد نشوة و أطلب المزيد من القتال.

و أذكر يوم أمسكتُ بيديك للمرة الأولى، فأقبض على يد العدو.. دون رحمة.

أتذكر أول شجار لنا.. حين قلتِ : سأرحل..، و آبى إلا أن يرحلون.

أتذكر دموعكِ يوما.. حين قلتِ: ليس هناك أمل..، فآبى إلا أن أرى دموعهم دماءا.

أتذكر و أذكر.. و آخر ذكرى.. يوما دخلتُ بيتكم، و جلستُ بين يدي والدك، أتردد في الحديث، أتذكر حين وقفتِ تساعديني

بالإشارة، والتى فهمتُ مقصدكِ منها خطأً، و قلتُ له "هناك زلزال..!"

تعجب كثيرا و نظر حوله، ثم بدأ في الضحك، و لكنني تمالكتُ نفسي،

بعد أن أخذتُ جرعة شجاعة من عينيكِ.. و قلتُ له " أجل هناك زلزال"

فتعجب والدكِ من نبرتي الواثقة، و بدأ ينظر تجاهي بإهتمام، فأشرت على موضع سكنكِ.. داخل قلبي، و قلت له " هنا زلزال.. أحدثته ابنتك و مسئول أنت عن ترميم ما قد تلف.."

نظر إليّ.. ثم تنهد وقال " وكيف سأصلح الأضرار..؟"

فقلتُ و أنا أنظر في عينيك و استجمع قوايا من جديد، بعد نظرتك الحانية، قلت برجاء إختلط بدموعي.. "زوجني إياها.."

هنا قرر القدر، و أصبح كلُ منا للأخر..

أتيتُ للحرب، و سأعود محملا بالنصر، فقط من أجلكِ.

الحرب من حولي تشتعل، النيران تلتهم، القنابل تفجر، و الطلقات تدوي، الدماء تتناثر، الأشلاء تتبعثر، و النصر قادم..

و لكن ما هذا؟!.. إنها طلقة تخترق صدري، لقد خلقت من أجلى، تترك الجميع، تخترق الصفوف جميعاً، تمر غير عابئةٍ بكل تلك الوجوه، هي فقط تريدني، تقصدني دون خطأ، ستصيبني مهما كلفها الأمر، إنها تمر ببطئ في مكانك بالداخل تريد أن تحتله، تريد أن تخرجكِ، و لكن لن أسمح لها أبدا بإخراجك.

ستعيشين بينما أموت أنا، سأدافع عن بقائك داخلي حتى أخر نفس..

أشعر بالألم الشديد، بالبرد القارص، لا أشعر بشئ إطلاقا، لم أعد أشعر بشئ، هل أصبحتُ شهيداً بهذة السرعة..؟!، أين أنا الآن..؟!، هل دخلتُ الجنة..؟! أين أخي..؟!

يبدو أنني في حلم ما، سأنام ربما أفيق منه. أغمضت عيني، و استسلمت للنوم..

****

أفقتُ من غفلتي، ها أنا في مكان أخر، استعدتُ وعيي، وقفتُ على قدمي، لا جراح في صدري، يبدو بأنني كنت أحلم، لكن أين المعركة..؟!، أين الجنود..؟!، و ما كل هذة الأشياء من حولي..؟!،

هل وقعتُ في الأسر..؟! يبدو بأنني متُ حقا!، و لكن ليست هذة النهاية. حتما هناك طريق أصل به إلى الجنة سأبحث عن أخي، لكن ماذا لو ضللت الطريق، هل سأقع في النار..؟

ترنحتُ في مشيتي، من هول صدمتي لست أدري هل حي أنا أم ميت..!

بحثتُ من حولي، فلم أجد بشراً، فسرتُ و ركضتُ، و زحفتُ.. حتى رأيت بشراً من بعيد، ربما هذة هي الجنة يجب أن أذهب في إتجاههم، بدأتُ الركض من جديد، ماذا لو كانت هذة النار..؟، حسنا سأسأل عن الجنة سريعاً و أرحل أليس أفضل من البقاء وحيدا..؟، لست هنا أو هناك، و لكن البقاء في اللامكان أفضل من الذهاب إلى مكان لا نريده..

أخذتُ أتجادل مع نفسي، و في النهاية انتصرتُ.. عليَّ و قررت الذهاب بإتجاههم.

اقتربتُ ببطئ وحذر، رأيتُ أناساً عاديين.. لا فرق بينهم و بين الأحياء إطلاقا، يبدو أنهم على الأرجح جنود.

هل أعرفهم..؟، ربما أجد أخي بينهم..

أقف الآن أمامهم أنادي و أتحدث، أبكي، أبتهل، أتضرع علّ أحدهم ينظر تجاهي، لكن لاأحد منهم ينتبه..!

أنا هنا هل يراني أحدكم..؟!، ربما الحال هكذا في الآخرة.. لا أحد يُحدث أحد، و لكنهم يتحدثون إلى بعضهم البعض!، فلماذا لا يحدثونني...؟!

ذهبتُ إلى مكان آخر. سرتُ و سرتُ، ركضتُ من جديد.. و تعبتُ، استسلمتُ للنوم ثانياً و عندي أمل بأنني ساستيقظ من هذا الحلم..! فتحتُ عيني، و جدتُ أرجل تسير إلى جواري و أنا ملقى على الطريق، نهضتُ مسرعاً لأتفادى قدم كادت أن تدهسني..

و قفتُ أصرخ هذة المرة لعل أحدهم يسمعني. ناديتُ و أستغثتُ، حاولتُ كثيرا و لكن دون جدوى. هم بشر مثلي فلمّ لا يسمعونني..؟!، و كيف لا يستطيعون رؤيتي..؟!!

حاولتُ أن ألمس أحدهم أنبهه لوجودي، و لكن.. لكن يدي اخترقته و كأنها هواء!، هو لم يشعر بها تماما و كأنني لست موجود!، إذن لقد مت و لكن أيبقى كل الأموات هكذا..؟!، و لماذا لا أرى أمواتا غيري..؟!

هل سأبقى عالقا بين الحياة و الموت..؟، ربما لم أمت ربما هم الأموات، و لكن لماذ أرى الأموات..؟ ألا يوجد أحد بقى على قيد الحياة سوايّ...؟!

آه لقد تعبت مجددا. الأرض تدور من جديد..

ربما أنا لست على الأرض من الأساس، أجل ربما أنا في كوكب آخر، أخذتني يد فضائية خفية..!

ماذا عليَّ أن أفعل..؟

****

بدأتُ استمع لكل من حولي محاولا أن أتفهم أين أنا. تذكرتُ بيتي و عائلتي، قررتُ الذهاب إلى المنزل لأفهم ما يحدث..

ركبتُ إحدى المواصلات المؤدية إلى المنطقة التى أسكن بها، بالطبع لم أدفع المال، يا لها من فكرة، أفكر في أجرة المواصلات، و أنا شخص تقريبا ميت..!

طال الطريق بسبب هذا الزحام الغريب الذي لم أشهده من قبل حتى في أكثر الأوقات إزدحاما، أذكر بأن جنازة "عبد الناصر" لم تكن تشمل هذا العدد من البشر..

إنني منحشر بين هؤلاء الواقفين، أكاد أن أدهس دهسا من كثرتهم، و بما أنني غير مرئي فهم يحتلون مكان وقوفي..

أخذتُ أتسلى بالإستماع إلى الركاب الذين اندهشتُ كثيرا من زيهم، و أسلوب حديثهم ، إنهم بالطبع يتحدثون العربية و لكنها عربية غريبة بعض الشئ، إنها لهجة مصرية و لكنها مختلفة، ربما هذة لهجة عالم الأموات...!

إنهم يتحدثون و كأنهم من زمنٍ آخر و دنيا مختلفة تماما، يتحدثون عن ثورة، لقد قامت في مصر ثورة غير ثورة يوليو، لقد قامت ضد الظلم و الفقر و الجوع و الفساد، ما أعظم الشعب المصري..!، لقد أطاحوا بفرعون آخر، حرروا وطنهم مرة أخرى، لكن الأمور تدهورت بشكل غير معهود.

وصلت إلى حال جعلت الكثير يتمنى لو لم تكن تلك الثورة، لقد مات الكثيرون، لقد قُتلوا، لقد فقدت مصر أبناءها، كما هو الحال دوماً، لكن أين هذا الوطن الآن..؟!

يتحدثون عن مجازر، و حروب بين أبناء نفس الوطن.

- البلد حالها اتقلب، ثورة إيه دي الي خلت الناس أخلاقها وحشة كدة . قالتها امرأة عجوز.

فأجابها إحدى الشباب

- محدش يقدر يغير الناس يا حاجة، إحنا إلى محتاجيين نتغير من جوانا.. لا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

فتدخل ثالث في الحديث

- و أحنا نتغير إزاي يعني، ثورة و عملنا، صبر و صبرنا.. جوع و فقر و استحملنا، كان ماله مبارك، أهو كنا عايشين و إحنا متطمنين على عيالنا.

فقال رابع

- مبارك إللي كان بيسقينا الذل بالمعلقة، ما نتو كدة شعب مبيحبش غير الي يخنقه.

فأرتفع صوت الأول

- على الأقل كنا لاقيين ناكل، و عايشين متطمنين.

فأجابه الأخر بصوت مرتفع أيضاً

- أنتو خلاص أتعودتو على الإستعباد، بتحبو فرعون.

قال الرجل الأول و قد أحمر وجهه غضباً

- ما تحترم نفسك يا جدع أنت.

أحتدم النزاع بين الطرفين و علت الأصوات بالسباب، و الألفاظ النابية التى لم أفهم معنى معظمها و لكنني بالطبع علمت بأنها سباب من طريقة إلقائها..

هنا تدخل الرجال لإيقاف هذا الشجار، و صرخ أحدهم

- كفاية كدة يا جماعة معانا حريم عيب عليكو.

وقد استجابوا لهذا الرجل بالرغم من فشل المحاولات التى سبقته، إنه الشعب المصري دوما حين تُذكر المرأة..

لكن العجيب بأنهم لم يكملوا شجارهم إحتراما لوجود النساء في حين أننى أرى رجلا يضايق فتاة! ، إنه يحاول أن يلمسها أيضا،

لقد لمسها بالفعل، إنه يقول كلاما بذيئا أخجلني، فماذا فعل بتلك الفتاة؟!

كيف لا يتقدم أحدٌ لمساعدتها؟! لماذا لا يقومون بضرب هذا الرجل..؟! يبدو الذعر جليا على ملامحها، ولكنه لا يتوقف، وقفتُ بينها و بين الرجل، لكن هذا لم يغير شيئا، فهو مازال يستطيع الوصول إليها من خلالي، يخترق جسدي ليصل إليها، يمنعها من المرور، إنها تبكي خائفة، و يبدو أنه مستمتع بهذا، العجيب أنها ترتدي حجابا، ملابسها محتشمة، لا تضع زينة، و لم تفعل أي شئ يدعوه لهذا!

الناس ينظرون نحوهم و كأن ما يحدث هو أمر طبيعي و مألوف، لا أحد يهتم بها، لا أحد يشعر، هل أصبحت المرأة مهانة إلى هذه الدرجة..؟!

في أي عصر نحن..؟!

في أي بلد..؟!

هل هؤلاء مسلمون..؟!

عجباً لنا، نحن حقا "شعب الإزدواجية!"

أشعر بدوار شديد، ليس بسبب وقوفي موالياً ظهري للسائق و الطريق يسير عكسي و كأنني أسير بظهري.. و لكن لما سمعته أذني، و رأته عيني..!

ارتجلتُ من الأتوبيس، قررتُ الذهابَ للمنزل سيرا، مررت بطرقات غريبة، كباري جديدة، مباني شاهقة، عمارات عالية، و أناس غريبة..!

في أي مكان أنا..؟!

عجبتُ كثيرا من الزي، أرى فتى يرتدي بنطال يظهر أسفل ظهره و ملابسه الداخليه، و إذا تحرك قليلاً سيسقط تماماً..!

لقد تغيرت الأماكن كثيرا كذلك الناس..!

****

" أحنّ إلى خبز أمي

وقهوة أمي.. ولمسة أمي

وتكبر فيّ الطفولة.. يومًا على صدر يوم

وأعشق عمري لأني

إذا متُّ، أخجل من دمع أمي!

خذيني أمي، إذا عدت يومًا

وشاحًا لهدبك

وغطّي عظامي بعشب.. تعمّد من طهر كعبك

وشدّي وثاقي.. بخصلة شعر..

بخيطٍ يلوّح في ذيل ثوبك..

عساني أصير إلهًا.. إلهًا أصير..

إذا ما لمست قرارة قلبك!

ضعيني، إذا ما رجعت.. وقودًا بتنور نارك..

وحبل غسيل على سطح دارك

لأني فقدت الوقوف.. بدون صلاة نهارك

هرمت، فردّي نجوم الطفولة

حتى أشارك.. صغار العصافير

درب الرجوع.. لعش انتظارك! " محمود درويش

و أخيرا وصلتُ إلى منزلنا، كم أشتاق لأمي، كم أريد أن تحضنني و تقبلني و تداعب بيديها خصلات شعري كما أعتادت دوما، كم أشتاق لأبي حين أجلس أمامه يقرأ القرآن، حين يناديني و يقول كيف حال الجندي المقاتل و حامي الحما.

ركضتُ بخطوات واسعة نحو منزلنا، صعدتُ الدرج بسرعة لم أشهدها من قبل، لمّ يبدو بيتنا قديم لهذة الدرجة..؟، لمّ الجدران مهترئة و السلم يتأرجح كلما خطوت فوقه..؟، و ما هذة الرائحة العطنة..؟

لايهم، المهم أنني سأرى أهلي، بالتأكيد سيروني، سيشعرون بوجودي، دوما ما شعرت أمي بعودتي دون أن تراني، تعد لي كل الأطباق التى أحبها دون أن أخبرها بتاريخ العودة، وحين أسألها تقول " بالتأكيد أشعر متى تعود، فأنت معي طوال الوقت"

بالطبع ستفعل اليوم، هي تدري كم أحتاج إليها الآن، لن تتخلى عني، ستضمني بين ذراعيها، و سأنسى كل الألم.

سأنام في أحضانها، و تمرر يديها على رأسي تقرأ القرآن، و تعطيني هذا الدواء السحري، و سأصير بخير، سيزول كل شئ و سأعود للحياة.

وقفتُ أتأمل الباب المتآكل، الصدأ الذي أصاب مقبضه، حاولت رن الجرس دون جدوى، يدي تخترق الحائط و كذلك الباب!، وجدتني أدخل من الباب و هو مغلق، إنه شعور عجيب لكنه لذيذ..!

الظلام و الهدوء يخيمان على المكان، دخلتُ غرفة والديَّ و الباب مغلق، لكنهما ليسا في الداخل، أين هما؟!، أريد أمي، أريد أبي، الغرفة تبدو مغلقة منذ زمن، الأثاث مغطى بالأقمشة البيضاء تغطيها الأتربة، هل سأراهما ثانية؟، أنظر للحائط الذي أكلته الرطوبة، أرى صورة زفافهما، تنهمر دموعي، لقد أتعبني الإشتياق، أشعر بأنني لن أراهما مجددا، أترك الغرفة و أذهب لغرفة أخي، تلك الغرفة التى حرَّمت أمي علينا دخولها منذ استشهاده.

الآن يمكنني دخولها بطريقتي السحرية، إنها مثل الغرفة الأخرى متشحة بالبياض، متزينة بالأتربة، صور أخي في كل مكان أتطلع عليها أبكي بحرقة، ملابسه، كتبه، و العود، ذلك الذي طالما أسمعنا منه أحلى الألحان..!

أترك الذكريات أنطلق لغرفة أختى، إنها فارغة تماما من أي أثاث، بها بعض (الكراكيب)، يا تُرى أين أختي؟

أريد عائلتي، أين أنتم؟

بقيت غرفتي، دخلتُ لأجد شخصا نائما، و أخيرا سألتقي بأحد من أسرتي، أقتربتُ من الفراش ببطئ، يا تُرى من هذا الشخص..؟، وقفتُ أراقبه، يبدو في العقد السادس تقريباً.. يشبه أبي، لكنه ليس هو، يا تُرى من هو.. ؟ و قفتُ أتأمله و أبكي حتى طرق أحدهم الباب.

ربما عادت أسرتي

قام الرجل العجوز، يبدو عليه المرض، يستند إلى كل شئ ليستطيع الوصول للباب، تمنيتُ مساعدته، شعرتُ نحوه بشعور غريب، أشعر بأنني أحبه، بأنني أعرفه منذ زمن و لكن من هو..؟، حاولت استجماع شتات ذاكرتي و لكن دون جدوى.

توقف فجأة و نظر تجاهي، هل يراني..؟، حرك أصابعه في الهواء و كأنه همَّ أن يلمسني، لكنه ألتفت ثانيا إلى الباب الذي لا يتوقف عن الطرق بهذا الصوت المزعج.

فتح الباب لتظهر من خلفه، طفلة في التاسعة من عمرها..، لا أعرفها، يا تُرى من هي؟

قال العجوز

- ازيك يا ضحى..؟

- الحمد لله يا جدو.. حضرتك عامل ايه..؟

- الحمد لله يا بنتي تعالي ادخلي.

قالت الطفلة بسرعة

- لا معلش يا جدو ماما قالتلي أطمن على حضرتك و أمشي على طول .

- ليه كدة، دا أنا حتى عندي شوكولاتة.

فكرت الطفلة قليلاً ثم قالت

- بجد ! أمممممم طيب هاخد الشكولاتة و أمشي.

ضحك الرجل

- طب تعالي.

دخلت ضحى و أغلق جدو الباب..

قال الرجل و هو يتجه للغرفة

- أنتي مستعجلة ليه كدة يا ضحى..؟

- أصلنا رايحين نزور راوية في المستشفى..النهاردة ميعاد الزيارة.

- طب يا بنتي ربنا يكتبلها الشفا.

- يا رب يا جدو، فين الشكولاتة بقى..؟

أخذت الطفلة الشوكولاتة، و همت بالرحيل، أحترتُ هل أبقى مع الرجل أم أرحل معها..

قررتُ في النهاية أن ألحق بالفتاة الصغيرة، ربما توصلني لعائلتي.

****

و بعد عدة ساعات، في نفس تلك الطرقات المزدحمة، وصلنا أمام مبنى مغلف بالبياض، محاط بالأسوار، قابلتنا حديقة جميلة، ثم دخلنا المبنى،

استقبلتهم سيدة..

- أهلا مدام مديحة أتفضلو.

دخلت مدام مديحة و ضحى إلى جناح ملئ بالغرف المصطفة على جانبيه.

دخلنا إحدى الغرف، رأيتُ فتاة في العشرين من عمرها، إنها حقا جميلة، شعرها ينسدل على كتفيها بنعومة فائقة، بشرتها بيضاء تضئ وسط سواد شعرها، ترتدي نظارات سوداء بالرغم من أنها بداخل الغرفة، وهو شئ لا يفعله إلا أمثال "طه حُسين" .. شعرتُ بالحرج أن أراها هكذا ممدة في سريرها دون أن تضع حجابا أو تعلم بوجود رجل غريب، فخرجتُ قبل أن تلتفت لتقابل زوارها.

وقفتُ في الحديقة، لا أدري لماذا أتيتُ، لماذا أنصرفتُ من غرفتها، هل يجب أن تستتر النساء من الأموات..؟، مهلا حتى الآن أنا لستُ ميتا، إلى أن أرى شهادة وفاتي.

تجولتُ قليلا في تلك الحديقة، أرى أشخاصا بلغ منهم الكبر فقدوا قدرتهم على ممارسة حياتهم دون مساعدة، منهم من فقد القدرة على

المشي، الحديث، السمع، الرؤية، منهم من أصيب بذلك المرض الذي يأخذ معه كل شئ و يترك الإنسان يتخبط في نسيانه

(الزهايمر)، معظمهم كبار في السن و إن كنتُ أرى بعض الشباب الذين تنكر لهم الشباب فألقاهم هنا.

فكرتُ في الذهاب لذلك الذي يُدعى السجل المدني ربما أجد شهادة وفاتي فأرتاح، و بالفعل تركت المشفى و توجهت إليه باحثاً عن نفسي.

و بعد عناء بالغ، و قضاء عدة ساعات أخرى بين وحوش المواصلات، استطعتُ أن أصل.

بالطبع وجدته مغلقا و اتبعتُ طريقتي السحرية في الدخول، إنها ملايين الأوراق و الملفات، و بعد بحث استمر طويلا لم أحصل على شئ إطلاقا، و لا أعرف هل هذا إستثناء لإحتمال موتي أم أنه تأكيد له.

أنهكني البحث، جلستُ على مقهى، لا أدري لماذا.. بالطبع لن أتناول (شاي في الخمسينة) أو (شيشة تفاح) أو حتى سألعب (عشرة طاولة).

مارستُ عادتي الجديدة و التى لا أملك سواها "الإستماع"

إنه نفس الحديث يتحدثون عن "ثورة.. استفتاء على دستور.. إنتخابات رئاسية!"

يا تُرى ما الذي حدث..؟و لِمَ يتشاجر الجميع دوماً..؟، نظرتُ للتلفاز، وجدتُ نفس الحديث يا إلهي إنه حديث الشعب بأكمله..!

لقد فهمتُ.. لقد أُغتيل السادات على يد أبنائه..!، جنوده الذين حاربوا معه.. كيف حدث هذا..؟!

ثم جاء "محمد حسني مبارك" رئيساً لمصر بعد إغتيال "السادات"، و بقي في الحكم ثلاثين عاماً!!

قام الشعب بثورة جلبت معها إنقسام الشعب.

ما زالت فلسطين محتلة حتى الآن، و لحقت بها العراق، لقد قامت ثورة في تونس، ليبيا، سوريا.

نحن الآن في عام 2011 !!! لقد فقدتُ وعي من جديد..

****

في الصباح الباكر، دخلتُ بيتي - سابقا -، يجب أن أفهم من هذا الرجل ، لماذا نحن في عام 2011..؟ هل عشت ثمانية و ثلاثين عاما دون أن أدري ..؟!

أشعر بأنني سأنهار، أريد أن أتحدث إلى أحد، أن أفهم، من أنا؟ا، ما الذي حدث؟، أين أنا؟، في أي زمن، في أي مكان، في أي كوكب، في الدنيا، في الآخرة، هل أنا حي؟، هل أنا ميت؟، هل أنا مستيقظ؟، هل أنا نائم؟، هل أنا موجود؟!

ما هذا الرجل!، هو دائما نائم، أخذتُ أقلب في أغراض المنزل، وجدتُ صورا إنها الشئ الوحيد الذي سيثبت وجودي في الحياة، و أخيرا وجدتني.. أنا موجود، أنا موجود..

صوري منذ كنت طفلا مع أبي و أمي و أختي و أخي..

صور زفافي، مااااااذا؟! هل تزوجت؟!، متى؟!، و من هذة إلى جواري؟!، إنها ليست حبيبتي..!

كيف تزوجت بامرأة أخرى؟!، لماذا لا أرى فريدة إلى جواري ترتدي فستانها الأبيض؟!، ما الذي حدث؟!، لا يمكن لشئ أن يفرقني عن فريدة مهما كان، فكيف افترقنا؟!، كيف حدث كل هذا و أنا لا أدري؟!، سأصاب بالجنون، هذا إذا لم يصبني بالفعل.

لم أفق من صدمتي إلا عندما استيقظ الرجل، و بعد عناء تمكن من الوصول للهاتف، أتصل كثيرا و لم يحصل على رد، إنه على ما يبدو مريض أليس لديه أقارب..؟ ألا يوجد هناك أحد ليهتم به..؟

بعد قليل رن جرس الهاتف، انتفض الرجل ليجيب

- أيوة يا محمد يا بني أنت فين..؟

- .....

- أنا كويس الحمد لله ، هتيجو أمتى؟

- .....

- ليه بس كدة يعني كمان السنة دي مش جايين.
- .....
- لا يا بني إللي فيه مصلحتكو اعملوه.
- مع السلامة.

أغلق الخط ثم أنخرط في بكاء مرير و هو يردد

"أنا إلى عملت ف نفسي كدة.."

"أنا إلى عملت ف نفسي كدة.."

لا أدري لماذا أشعر بشفقة غريبة تجاه هذا الرجل، أريد أن أمسك بيديه، أتحدث معه ، أخبره ، لست بمفردك، أنا معك.. و لكن كيف السبيل إلى هذا..؟، ألا استطيع تحقيق أمنية بسيطة كهذة؟!

قام الرجل توضأ و صلى، يدعو الله و يتضرع إليه، ففعلتُ مثله. شعرتُ و كأننا تلاقينا و نحن في الصلاة، سجدتُ معه، بكيتُ معه، دعوتُ الله معه.

جلستُ أفكر في هذا الرجل و تلك الفتاة، أشعر بأنني مسئول عنهما، وجودي هنا ليس صدفة، قطعا هناك هدف منه، يجب أن أقدم لهما المساعدة، لعل الله يساعدنى ويجعلهم وسيلة لكى أجتمع بأهلى يوما ما.. و لكن كيف..؟

كيف..؟ يارب أعطني إشارة ما، يا رب ساعدني.

وبينما أنا منشغل في تفكيري وحيرتى دق الباب...

فتح العجوز فإذا بها ضحى من جديد ..

- أهلا يا ضحى

- ازيك يا جدو.. النهاردة.

- الحمد لله أدخلي.

- ماما نازلة ورايا.

دخلت الأم

- أزيك يا حاج..؟

- الحمد لله يا مديحة يا بنتي، راوية عاملة ايه..؟

- و الله يا حاج زي ما هي ، لا بتكلم حد و لا بتعمل حاجة و الدكتور بيقول الإكتئاب بيزيد و مينفعش نخرجها من هناك.

- الله هو الشافي، إن شاء الله هتبقى كويسة أنا بدعيلها في كل صلاة.

- ربنا يكرمك يا حاج ، و الله حضرتك السند لينا في الدنيا دي.

- أنتو ناس طيبين و تستاهلو كل خير، دا انتى الوحيدة إلي كل يوم لازم تسألي عليا ، ولادي مبيعملوهاش.

ترقرقت عيناه بالدموع في جملته الأخيرة..

- متقولش كدة يا حاج دا ربنا الي عالم حضرتك زي بابا الله يرحمه، ألا هما ولادك مش هيجيو السنة دي كمان؟

- لا، قالو وراهم شغل، أنا عارف إنها حجة عشان ميشفونيش، بس أنا عازرهم.

- ربنا يهدي النفوس يا حج.. قالتها مديحة و هى تدري بأن النفوس تحمل الكثير و الكثير، و أن نفوس أولاده مشتعلة حقدا و كراهية لوالدهم.

ألتفت الرجل لضحى التي تجولت في المنزل و أخذت تعبث بالأشياء

- ها يا ضحى عملتي إيه النهاردة في المدرسة..؟

- اسكت يا جدو دا الميس النهاردة مجتش و قعدنا نلعب طول النهار، بس جت المديرة و زعقتلنا.

- زعقتلكو ليه مش المُدرسة هي إلي غايبة..؟

- زعقتلنا عشان ضربنا ولاد في الفصل التاني.

ألتفتت والدة ضحى إليها و علامات الضيق ترتسم على وجهها

- ضربتو الولاد! ليه كدة يا ضحى ، أنا علمتك كدة..؟

- إيه يا ماما هما إلي قليلين الأدب و محتاجين يتربو.

- تصدقي أنتي إلي قليلة الأدب، أنا مش قلتلك عيب نشتم الناس و حرام نجيب سيرة حد مش موجود بكلام وحش.

أقتربت ضحى من الرجل و هي خائفة و كأنها تحتمي به

- كلام ماما صح يا ضحى متعمليش كدة تاني.

- يا جدو هما قعدو يعاكسونا و احنا بنلعب و البنات كلها اتلمت عليهم و ضربتهم.

قالت والدة ضحى في قلق

- يعاكسوكو إزاي يا ضحى عملو ايه يعني..؟

- بيقولولنا كلام رخم و واحد منهم قال لصاحبتي أنها حلوة.

ضحك الرجل قليلا، لكن تبدو الأم في غاية القلق وقالت:

- أنا هاجي معاكي بكرة المدرسة و أشوف المديرة و أقولها عشان ياخدو جزاءهم.

تعجبتُ كثيراً ، عندما كنا أطفال لم نفكر يوما هكذا، لقد كان أكبر خطأ نرتكبه هو لعب الكرة في طريق العودة من المدرسة، حتى عندما أصبحنا شباب لم نفكر يوما في التفوه بكلمة تضايق زميلة، جارة، أو حتى فتاة تسير في الطريق.

كيف تبدلت الأخلاق هكذا..؟، لكنني فكرتُ بضحى و والدتها، فمديحة مازالت متمسكة بتربية بنيتها على المبادئ، و القيم، ليت جميع الأمهات هكذا..!

ابتسمتُ و قلت

- الدنيا لسة بخير..

العجيب أن هذا الرجل قال نفس الجملة بعد أن انتهيتُ من جملتي، هل استمع إلى حديثي..؟، هل شعر بوجودي..؟، فكرتُ أن أتحدث مرة أخرى ربما يشعر أحدهم بوجودي..

و فجأة سمعتُ صوت موسيقى، بحثتُ عن مصدر الصوت، فإذا به ينبعث من حقيبة مديحة، حيث أخرجت شيئا صغيرا من حقيبتها لتضعه على أذنها و تبدأ في الحديث، يبدو أنه هاتف و لكن لماذا هو صغير هكذا..؟، و كيف يعمل دون أسلاك..؟!

مديحة " ألو السلام عليكم ،.....، أه أنا،.....، طب حاضر أنا هاجي على طول مسافة الطريق"

- معلش يا حاج طلبوني راوية تعبانة قوي لازم أروح ممكن أخلي ضحى معاك.

- طبعا يا مديحة ربنا يطمنك عليها أبقى طمنينا .

- عايزة أجي معاكي أشوف راوية. قالتها ضحى.

- مش هينفع يا ضحى اسمعي الكلام و أقعدي مع جدو على ما أجي.

خرجت المرأة و هي تتمتم " استرها يا رب" وجدتني ألحق بها، أشعر بأنني مسئول عنها، أشعر بأن وجودي هنا الآن لأساعدها و أساعد هذا الرجل.

بعد نفس العناء في الطريق و المواصلات التي تشبه الحرب، و التى تبدو أسوأ بسبب لهفة مديحة و تعجلها، دخلنا إلى نفس المكان السابق، لأرى ذات الفتاة، لكن هذة المرة تقف أعلى المبنى في محاولة إنتحار، شهقت الأم و الدموع من عينيها أنهار، الجميع يحاول ردعها، الأم تهتف، ترجوها، ترفض جميع المحاولات، لا تستمع للرجاء، ستلقى بنفسها من أعلى، ستموت.

لم أشعر إلا و أنا أقف إلى جوارها في الأعلى، أعلم أنني الوحيد الغير قادر على مساعدتها، و لكنني شعرت بضرورة وجودي بقربها.

أقتربتُ و أنا أدري أنها لن تدري بوجودي، وجدتها تلتفت تجاهي، أقتربت مني ببطئ و حذر، تشير تجاهي، نظرت إليّ، هل... هل تراني؟؟

.....

قالت بصرخة

- أنا بشوف ، أنا بشوف..!

.....

وقفتُ مشدوها لا أدري ماذا أفعل، هل تراني حقاً..؟!، هل استعادت بصرها فجأة..؟!

قالت و هي تقترب لتتحسس وجهي بيديها

- أنا شايفة، أنا شايفة، إزاي كدة أنت بجد موجود و لا أنا بيتهيألي..؟

لقد سألت أصعب سؤال..

هل أنا موجود؟!!

.....

****

وجدتني أخرس مرة واحدة: حين سألني امرؤ ((من أنت))؟

جبران خليل جبران

رمل و زبد

هل أنا موجود..! ، هل أنا موجود؟، إنه آخر سؤال يتوقع المرأ أن يسأله إياه أحدهم يوما.. هل أنت موجود؟، لقد فتشت كثيرا عن إجابة لهذا السؤال ولكن دون جدوى، منذ لحظات أكدت كل الحقائق أننى غير موجود، يرفض الجميع إجابتي، لا أحد يراني، لا أحد يسمع صوتي، و كأنهم تكاتفوا لإثبات عدم وجودي، ولكنها جاءت و بمنتهى البساطة لتؤكد لي الآن أنني موجود، لقد رأتني، ألا يكفي هذا ليثبت وجودي، فلماذا تسأل..؟ لماذا تسلب مني الأمل الوحيد و هي من أعطاني إياه من البداية؟!

سيول من الأفكار و الأحداث تنهمر على رأسي، يكاد مخي أن يتوقف عن العمل، إنها بالفعل ترانى، فرحتُ، خفتُ، تهتُ، سافرتُ في عالم الذكريات ثم عدت، عدت و أفقت على سؤالها مجددا، هل أنا موجود .؟

لا أدرى ما الإجابة، تمنيت حقا لو أعرف، لأساعد نفسي قبل أن أساعدها، ولكنى لم أملك سوى أن أؤكد لها أنها ترى بالفعل و بأنني حقيقي، لعلها تصرف نظر عن فكرة إنتحارها..

فأومأت برأسي مؤكدا..!!

أؤكد لها شيئاً أحتاجها لتؤكده لي..!

و بالطبع أخذت تحمد الله، وسجدت لله شكرا في اللحظة التى أقترب منها بعض الأشخاص لإنقاذها، و أعطوها حقنة مهدئة، لتنام في الحال و تذهب محمولة إلى غرفتها، تبعتهم إلى الغرفة، ملاك نائم و أم تنتحب، أطباء يلملمون ما بقي من علمهم في محاولة لمعالجتها.

قالت الممرضة في لهجة جافة:

- اتفضلي يا مدام حضرتك روَّحي و تقدري تشوفيها بكرة ف ميعاد الزيارة.

أتذكر أن الممرضة كانت تُدعى ملاك الرحمة، لكن يبدو أنه مجرد اسم اختفى على مر السنين..

- لا أنا مش هسيب بنتي، معلش خلوني أبات معاها النهاردة.

أجابها الطبيب

- مينفعش يا مدام، إحنا عارفين مصلحتها أكتر منك، حضرتك كدة بتضريها.

- حاضر يابني، بس خلو بالكو منها بالله عليك.

- يا أمي دا واجبنا، متقلقيش.. بس أتفضلي عشان نشوف شغلنا و بكرة تقدري تطمني عليها.

توجهت الأم للمرضة ـ ملاك الرحمة سابقا-

- و النبي يا بنتي تخلي بالك منها. ثم دست مبلغ نقدي في جيوب ملابسها.

هنا تغيرت ملامح الممرضة تماماً و انفرج فمها عن إبتسامة كبيرة

- أنتي تؤمري يا حجة دي ف عنيا.." ثم تلاشت ابتسامتها بعد رحيل مديحة ومعها تأثير النقود.

خرجت الأم، بقيتُ أنا و الأطباء و الممرضة البدينة..

قال طبيب

- رأيك إيه يا دكتور فؤاد

- مش عارف يا دكتور أحمد شكل الحالة معقدة، بس معنى إنها تراجعت ف آخر لحظة، يبقى مكانتش محاولة جدية للإنتحار.

- ماهو ده إللى محيرني، حالتها بتقول إن دي المفروض تكون محاولة جدية، إزاي ترجع ف كلامها عادي كدة.

- الموضوع محتاج بحث، تعالى نروح نشرب قهوة و بعدين نسهر نشتغل سوا.

- ماشي ، أحسن أنا خلاص تعبت عالآخر.

انصرف الطبيبان بعد أن أعطيا بعض التعليمات للممرضة البدينة، التى جلست و رفعت ساقيها، تمددت، نظفت أظافرها، و أمسكت ببطنها المترهل مائة مرة في محاولة لجعله يبدو أصغر، أخرجت طعاما من جيوبها الكبيرة العميقة، تناولت الطعام، نظفت أسنانها، خلعت حذاءها، و بدأت في عد النقود و كأنها سائق تاكسي يحصي أجرة اليوم، الغريب أنها فعلت كل شئ إلا عملها، هي حتى لم تلقِ نظرة على تلك النائمة و لو مقابل نقود مديحة.

ثم ما لبثت أن تركت الغرفة بعد أن قامت بنصف أو أقل قليلاً مما طلبه الطبيبان..!

جلستُ أراقب هذا الملاك، إنها حقا جميلة، يا تُرى لماذا أرادت الإنتحار؟ ما أقسى هذا العالم،كيف طاوعه قلبه أن يدفع مثل هذا الملاك الصغير إلى الإنتحار هربا منه..!، و الأهم من ذلك كله كيف تمكنت .. من أن ترانى ؟!

و بينما أنا كذلك سمعتُ صوت يقترب، فتح أحدهم الباب، إنه شاب يبدو في النصف الثاني من العشرينات، وسيم، أبيض البشرة عيونه بنية، شعره ذهبي.

دخل ثم وقف في مكانه مُتسمرا..!

****

نظر تجاهي و جدتني في حركة لا إرادية أضع يدي على وجهي و كأنني أختبأ، لقد أردتُ بشدة أن يراني الآخرون، فلمّ أشعر بالخوف أن يراني أحدهم..؟

لكنه لم يرني، بل توجه لها، مسح على شعرها، و نزلت منه دموع صامته، هل يحبها..؟، هل هو مريض أيضا.؟

بدأ يعلو صوت نحيبه، و بدأ يصدر أصواتا غير مفهومة استنتجت منها أنه أبكم.

حدثتُ نفسي بصوت مسموع و الدهشة تتملكنني مما يحدث منذ بداية هذا اليوم العجيب.

" أنت إيه حكايتك أنت كمان .."

وجدته ألتفت تجاهي بسرعة شديدة كالملسوع، و كأن عقربة لدغته، و كأنه سمع ما قلته ثم وقف و ابتعد عدة خطوات للخلف يبدو عليه الرعب و الفزع، لا أدري ما عليَّ فعله، هل سمع حديثي أم رآني..؟، و لماذا هو خائف هكذا..؟

قررتُ أن أعيد التجربة و أتحدثُ ثانيا

"هو أنت سامعني أو شايفني..؟"

أنتفض الشاب، و تحرك للوراء حتى ألتصق بالحائط، ثم خرج صوته متحشرجا، و كأنه يأتيني من كهف

- أنت مين..؟ قالها ثم وقع أرضا و أكمل

إيه ده أنا بتكلم، أنا بتكلم .

ثم قال

- أنت مين؟ أنا مش شايفك، أنت عفريت ولا إيه..؟

للمرة الثانية يسألونني من أنا، لا أملك الإجابة..، لماذا يصر كل من بهذه المشفى أن يسألنى هذا السؤال..؟

ألا تملكون سؤالا آخر..؟!

قلت له

- بص أنا هفهمك بس أهدى و أعرف إني مش هأذيك خالص ماشي...؟

لم أتلق إجابة على ما قلته لأنه فقد وعيه من فرط الصدمة.

جاءت الممرضة البدينة، تهتز بحركة ثقيلة، لتجد الفتى ممد أرضا، و بالطبع تشبع رغبتها في إحداث جلبة و تنادي على الجميع، ألا يمكنها أن تقوم بإفاقته في صمت..؟، جاء الأطباء مذعورين من ندائتها، ظنا منهم أن راوية أقدمت على مثل فعلها السابق.

- في إيه يا نجية..؟
- يا دكتور مريض غرفة 19، لقيته واقع هنا و مغمى عليه.
- طب أوعي كدة عديني.

أقترب الطبيب من الفتى و أنصرف بقية الأطباء، فهذة ليست بالحالة التى تستحق إهتمام الجميع.

عمل الطبيب على إفاقته و التى استغرقت وقتا طويلا، حتى ظننتُ بأنه لن يفيق أبدا.

بدأ الطبيب في قول عدة مصطلحات باللغة الإنجليزية و التى لا أفهمها أو حتى استطيع تكرارها.

فجلبت نجية عدة أدوية و محاليل، و انتهى الأمر بفتى غرفة 19 ممددا على سريره في غرفة 19، مغروسا في أطرافه بعض الأبر و التى تتصل بتلك المحاليل لتضخها في جسده الضئيل.

انتابني إحساس بالذنب، لقد سببت له كل هذا، لكنني تذكرتُ بأنني الوحيد الذي استطاع أن يمنع راوية من الإنتحار، فشعرتُ بالزهو و الفخر، الذي سريعا ما زال عندما تذكرتُ أنها ستفيق وستسأل من جديد.. هل أنا موجود؟!!

في غرفة راوية، وقفتُ أتأملها من بعيد، و نجية الممرضة تنفذ أوامر الطبيب، حتى أنصرفت، بعد أن تلقت إتصالا على هذا الشئ العجيب، الذي يطلقون عليه (موبيل).

أشرقت شمس جديدة و أنا مازلت بجانب راوية، لا أدري ما سأقوله لها، لكنني أدرك بطريقة ما بأهمية وجودي الآن لكل منا، على أحدنا أن يجيب على تساؤلات الأخر، هل أنا حقا موجود؟ و هل تمكنت أخيرا من الرؤية؟، أم أننا مجرد حالة استثنائية أخرى فى هذا الكون؟، مجرد أسئلة لا إجابة لها، أو ربما نتشارك حلما واحدا !!

و بينما أنا غارقٌ في حيرتى إذا بها تفتح عينيها ببطئ شديد، تألمت بصمت، ارتسمت على وجهها تعبيرات كثيرة، وضعت يدها على رأسها و كأنها تعتصرها لتخرج بأحداث الأمس، التفتت تجاهي و ابتسمت.

******

خشيتُ كثيرا مما سيحدث، أقتربتُ منها، شعرت بدقات قلبى تكاد تخترق صدرى من القلق، حاولت أن أتحدث لكن الكلمات لم تسعفني، لقد توقف لساني عن العمل، فبادرت هي بالحديث وقالت

- أنا مكنتش بحلم أو بخرف، أنا فعلا شايفة، هو حضرتك مين، أنت الدكتور..؟

حاولت البحث عن كلمات تليق بالموقف، أرى عيونها معلقة في وجههي تبحث عن إجابة، عيون متعلقة بأملها الوحيد في أن ترى مرة أخرى، ما أصعب أن ترى أمنيتها الوحيدة واقعا أمام عينيها، ثم نسلبها بمنتهى القسوة، ما أقسى الواقع.

لم ينقذني من هذا الموقف سوى دخول الطبيب، أقترب منها، لكنها لم تلتفت تجاهه و يبدو أنها لم تره، و هو بدوره لم يرني، لقد أعتدتُ على الأمور الخارقة، لكن كيف ستحتمل هي الأمر..؟، إنها الآن تصدق بأنها ترى، كيف تصير كفيفة بعد أن أبصرت..؟!

- ها عاملة إيه دلوقتي يا راوية..؟ قالها الطبيب.

نظرت تجاهي و كأنها تريد أن تتأكد بأن ما تسمعه ليس صوتي، ثم قالت

- حضرتك قلت حاجة؟

حركتُ رأسي نافيا، فوجدتها مذعورة

لكن الطبيب قال إجابةً على سؤلها الذي أعتقد بأنه موجها له

- آه، بقولك عاملة ايه النهاردة..؟

- أنت مين..؟، أنا مش شايفاك..؟

أعتقد الطبيب بأنها تهذي فقال

- هو أنتي أخر حاجة فاكراها إيه يا راوية..؟

نظرت تجاهي مرة أخرى و قالت

- أنا كنت بشوف، و الله العظيم كنت بشوف، حتى اسأله. قالتها و هي تشير تجاهي.

- هو مين ده إلي أسأله..؟، هو في حد معانا هنا ؟

قالت و هي تبكي

- آه هو أنت مش شايفه، أنا شفته امبارح و شايفاه دلوقتي كمان، والله العظيم في حد معانا في الأوضه، أنت مش شايفه ليه، أنا بشوف والله أنا بشوف، بس لما ببص في أي حتة تانية مش بشوف حاجة خالص..!

ثم نظرت تجاهي، ورجتني

- قله أني شايفة و أنك موجود.

فتح الطبيب فمه و أكملت هي قائلة

- هو في إيه يا دكتور هو أنا أتعميت تاني و لا أنا اتجننت، أنا بشوف و لا لأ.

أصبح الطبيب كمن وقع في مغطس ماء بارد، لا يدري ما يفعله

- استني يا راوية أنا هرجعلك تاني.

تبعتُ الطبيب للخارج لعلى أجد أى إجابات لهذا الموقف الغريب، لكنها استوقفتني قائلة

- متمشيش أرجوك، أنت مصدقني مش كدة..؟، أنا شايفاك صح..؟، أنت حقيقي..؟

تمنيتُ كثيرا لو أستطيع أن أخبرها أننى نفسي لا أدرى أكنت حقيقيا أم لا، بأنني أريدها لتؤكد بأنني حقيقة، هي لا تعلم بأنني أريد هذا أكثر منها.

لكنني لم استطع سوى الصمت، فأومأتُ برأسي من جديد و ذهبتُ خلف الطبيب.

******

دخل الطبيب غرفة ممتلئة بالأطباء، أشار لطبيبة تبدو في العقد الثالث، أقتربت منه فقال هامسا

- تعالي معايا يا دكتورة هنادي ضروري.

تبعته دكتورة هنادي، وقف أمامها كالتلميذ،

- دكتورة عندنا مريضة إكتئاب، حصلها الإكتئاب من فترة بسبب فقدان البصر، أمبارح حاولت تنتحر، و بعدين تراجعت في اللحظة

الأخيرة، و النهاردة أعتقد أنها بتعاني من حالة هلوسة، أنا محتاج لرأي حضرتكِ في الحالة.

- طبعا يا دكتور فؤاد، ممكن أشوف المريضة..؟

- ياريت.

ذهبا سويا لغرفة راوية و تبعتهما، وقفتُ على باب الغرفة محتارا، هل أدخل و أثبت جنونها أمامهما..؟، أم أبقى بالخارج و أثبت جنونها أمام نفسها..؟!

فكرتُ في مريض غرفة 19 وقررتُ أن أذهب إليه، لعلى أجد عنده حلا لما يحدث الآن، و تمنيت من قلبى ألا يصيبه ما حدث في الليلة السابقه، فهو الوحيد القادر على سماعي و التحدث معي، هو أملي الوحيد، ربما يساعدنا أنا و راوية، و يؤكد لنا ما ينتظر كل منا الأخر ليؤكده، فذهبت إليه مسرعا تاركا راوية بمفردها مع الأطباء.

وجدته يجلس على سريره شاردا، تقوم ممرضة بعملها، لكنه لا يعيرها إهتماماً، انتظرت حتى خرجت الممرضة، و بدأتُ الحديث

- أنت عامل إيه دلوقتي..؟

انتفض لسماع كلماتي

- أنت مين، إزاي مش بسمع و لابتكلم غير معاك أنت بس..؟

- مش عارف، أنا هحكيلك حكايتي بس متخافش مني أنا و الله مش هأذيك.

- أنا سامعك.

قصصتُ عليه ماحدث معي منذ كنتُ في سيناء أحارب وحتى الآن، بدت عليه الدهشة و هو يسمعني، ولولا غرابة الموقف الآن و قدرته على سماعي و التحدث معي، لما اقتنع أبدا أننى كنت جنديا في حرب 73 منذ أيام.

- يعني أنت عفريت و لا شبح؟، و جيت هنا إزاي

- لا أنا مش عفريت أنا انسان زي زيك، كمان أنا مش شبح.

- هو يعني الشبح بيكون عارف إنه شبح..؟! و مش عارف جيت هنا إزاي، أمال مين إللي يعرف، و إزاي أنا بسمعك و بتكلم معاك مع إني أصلا لا بسمع و لا بتكلم..!

شردتُ في حديثه، ربما أنا بالفعل شبح و لكن ألا يجدر بي على الأقل أن أعلم ما هي حقيقتي..؟!

" ما عييت إلا أمام من سألني : من أنت!؟ "

جبران خليل جبران

عدتُ من شرودي، و قلت من بين أفكاري

- مش عارف، و الحاجة العجيبة كمان هي راوية.

أضطرب الفتى عند سماع اسم راوية و قال بقلق

- راوية! مالها راوية..؟

- هي كمان بتشوفني..!

****

جلستُ في منزلي، أفكر في هذة الأمور العجيبة، كيف تمكنت راوية من رؤيتي و يوسف من سماعي، و الأهم من هذا كيف أتيتُ إلى هنا...؟

أتمنى أن يكون هذا مجرد حلم ، و استفيق منه قريبا حتى أرى عائلتي، و أتزوج فريدة...ّ!

أغمضتُ عينين لم يذوقا للنوم طعما، سأنام في حلم ربما استيقظ منه على حقيقة، أريد بعض الراحة...

لكن آنى لي بالراحة في هذا العالم، ها هو الباب من جديد..

طرقت ضحى الباب و هي تبكي..

- مالك يا ضحى بتعيطي ليه..؟

- عُمر ، عُمر يا جدو.

- عُمر مين، قصدك إلى ساكن فوق..؟

- أيوة يا جدو.
- ماله..؟ حصله حاجة؟ إيه إلى حصل؟
- قاعد يضايقني على السلم و أنا نازله، و بيقولي.
- بيقولك إيه يا ضحى، قولي.
- بيقول ، بيقولي أنا بحبك، و كمان.
- ما تقولي يا ضحى، متخافيش.. قالك إيه تاني..؟

ازداد بكاؤها..

- بيقولي، أ .. أ.. بيقولي هاتي بوسة.

قالتها ثم أنخرطت في البكاء .

ظهرت أمارات الغضب على وجه العجوز، و قد أحمر وجهه ثم أخذ الجد يهدئ من روعها..

- خلاص متعيطيش، أنا الواد ده هربيه، و هجيبه يقولك أنا أسف لحد عندك.

ظلت تبكي

- خلاص يا ضحى بقى عشان خاطر جدو..، أنا هضربهولك كمان، متزعليش.
- ده خوفني قوي يا جدو، مش محترم.

- خلاص بقى، تعالي أنا عندي أيس كريم، ناكله و بعدين أربيلك الواد ده.

عُمر ذلك الفتى الذي يقطن في الدور العلوي، تخطى الرابعة عشرة على استحياء، فقامته و جسده لا يعبران عن عمره، تتشبث به الطفولة و براءتها، لم تبالِ بمحاولاته المستمرة ليبدو رجلا و التى تمثلت في الكثير من الأفعال كان آخرها حلق لحية ليست موجودة..!

جلست ضحى مع الجد، إلى أن سمع صوت عُمر يصعد الدرج..

- ضحى أدخلي الأوضة إلى جوه و متطلعيش غير لما أندهلك.

- ليه يا جدو..؟

- اسمعي الكلام، و ادخلي و لما اندهلك تعالي.

****

فتح العجوز الباب و نادى

- عُمر.. يا عُمر.

- نعم يا جدو.

- تعالى، عايز اتكلم معاك.

- حاضر يا جدو.

دخل عُمر...

- نعم يا جدو عايزني أشتري حاجة لحضرتك..؟

- قولي يا عُمر، أنت شايف إنك راجل..؟

دُهش عُمر من هذا السؤال و لم يستطع الإجابة..

فأكمل الجد

- بص يا عُمر، أنت والدك الله يرحمه مش موجود صح..؟

تأثر عُمر..

- الله يرحمه.

- لو مامتك خرجت الشارع و جه واحد و قالها إنه بيحبها مثلا، أو عاكسها هتعمل إيه..؟

- دا أنا أموته، مين ابن ال..... ده..؟

- حلو قوي ، هتموته.. عشان إيه.. أقصد ليه هتموته..؟

- عشان قليل الأدب و محتاج تربية، عشان دي أمي مستحملش حد يقولها كدة، و لا يقرب منها.

- طب لو مش مامتك..؟

- يعني إيه..؟

- يعني لو واحد عمل كدة مع واحدة تانية و هي مش مامتك، يبقى قليل الأدب بردو و محتاج يتربى و لا عادي..؟

- لا طبعا قليل الأدب بردو.

- طب و لو الشخص ده أنت تبقى قليل الأدب..؟

إحْمَرَّ وجه عُمر و قد فهم ما يرمي إليه الجد، و لم يستطع النطق..

نادى الجد ضحى، "يا ضحى.. تعالي..يا حبيبتي"

عندما أقبلت ضحى إزداد إحمراراً وجه عُمر و ازداد اضطرابه، و أطرق رأسه خجلا..

تراجعت ضحى للخلف عندما رأت عُمر...

- تعالي يا ضحى متخافيش.

تحدث عُمر بصوت مختنق يكاد يكون غير مسموع

- أنا آسف يا ضحى، مش هعمل كدة تاني حقك عليا.

صمتت ضحى، و لم تجبه..

- خلاص يا ضحى، عُمر زي أخوكي، متزعليش منه.

استأذن عُمر، و ذهب للقاء أصدقائه، فتبعته، يبدو أنني سأقضي حياتي أتتبع حياة أناس لا أعرفهم...!

تقابل عُمر مع عدة شباب يبدو عليهم أنهم تخطوا السابعة عشرة.. فارعين الطول، الشعر يخط وجوههم، يبدو عُمر بينهم طفلا،

انطلقوا لمنزل أحدهم لمشاهدة فيلما، قررتُ أن أتبعهم، أريد أن أحصل على بعض التسلية، ربما سأرى فيلما لم يصنع بعد في عالمي، سأشاهده و أعود لأقصه على هالة أختي و أصدقائي.. لكن هل سأعود يوما..؟!

جلستُ معهم، و كم تمنيتُ لو استطع تناول المقرمشات التى يتناولونها، أو أشرب عصير معهم، فمنذ إنتقالي إلى هذا العالم العجيب و أنا لا أكل، هل يمكن أن أكون مازلت على قيد الحياة دون تناول و لو لقيمات قليلة..؟، لكن كيف السبيل... و كل شئ يقترب مني يخترقني و كأنني هواء..؟

بدأنا في متابعة الفيلم، تقدمت الأحداث، اندهشتُ كثيرا من محتواه، ذهلتُ مما رأيتُ من مشاهد لا تصلح لهؤلاء الأطفال..!، كيف تمكن أطفال من مشاهدة تلك الأحداث، و المشاهد..؟!

انتهى الفيلم و توجه الجميع كل إلى منزله، سار عُمر و صديقه حسن الذي لم يبلغ من العمر سوى الرابعة عشر أيضا، مرت أمامهم فتاة.. ترتدي بنطال أدخلته في قدميها بمعجزة إلاهيه، يعلوه شيئ لا يفرق عن جلدها شئ سوى لونه (الفوشيا)...

قال حسن

- إيه المزة دي، هاتي بوسة يا بت، هاتي حته يا بت.

تذكر عُمر حديث الجد، و شعر بالخجل مما فعله مع ضحى، هو فعلا يشعر بأنه يحبها لكن إن كان يحبها حقا فكيف يعاملها هكذا..؟، مثلما يفعل صديقه مع تلك الفتاة..

نظر له حسن

- إيه يا عُمر أنت مبتعاكسش ليه، أنت مش راجل ولا ايه..؟

تأثر عُمر بكلام صديقه كثيرا، كيف يصفه بعدم الرجولة، يجب أن يفعل مثل جميع الرجال، ألم يرَ الرجال في الطريق يتحدثون للفتيات هكذا..؟، ألا يفعل أبطال الأفلام مثل هذا..؟، يجب أن يكون مثلهم، يجب أن يكون رجلا..

تجاهل تماما كلمات الرجل، إنه جيل قديم لا يفهم كيف يكون رجال الجيل الجديد..

- لا إزاي، راجل طبعا.. و راجل قوي كمان.

ثم توجه للفتاة

- إيه يا مزة..ما تيجي معانا.

و يبدو أن (المُزة) أعجبها الأمر، فأخذت تتلكأ في مشيتها..

إن الذهول يتملكني مما أرى و أسمع..، ليتني أعود لحياتي قريبا..!

" ألم تكن غريبة هذه الصداقة بيني و بين هذا الشاب على ما كان بيننا من الإئتلاف و الإختلاف؟ أكانت صداقة خالصة أم كان وراءها أكثر من الود الذي يكون بين الأصدقاء؟ "

طه حسين

في المركز الطبي، تحديدا في غرفة 19، جلستُ أتحدث إلى يوسف، يستمتع بالحديث معي، لا يعنيه من أنا، هو فقط يشعر بحواس أفتقدها منذ زمن، هو يسمع للمرة الأولى، للمرة الأولى يعرف كيف تبدو الأصوات، أراد أن يسمع لو مرة واحدة، وها هي أمنيته تتحقق حتى لو مع مجرد شبح ، حتى أنه طلب مني أن أسمعه كل الأصوات، صوت الحديث، صوت الكحة، الضحكة، العطاس، الصراخ، طلب مني أن ألقى على مسامعه أكبر كم من الكلمات، تمنى أن أقلد له أصوات جميع الحيوانات التى يعرفها، قلدتُ له صوت السيارة، الطائرة، المدفع، الدبابة، لم نتحدث قط و يتخلل حديثنا شئ إلا و أوضحت له كيف يبدو صوته.

و رغم غرابة الموقف، و كم الحيرة والتساؤلات التى أحاطت بي منذ انتقلت إلى هذا العالم ، إلا أننى سعدت كثيرا به، توطدت علاقتنا، أصبحنا أصدقاء، لا أحد منا يستطيع الحديث دون الأخر، و لا أحد منا يستطيع البوح بأسراره سوى للأخر..

- **كنت عايز أحكيلك على حاجة.**
- **قول يا يوسف.**
- **راوية.**

ابتسمتُ بخبث، فأنا أدري أنه يحبها منذ رأيته أول مرة في غرفتها.

- مالها راوية..؟

أكمل و كأنه يحدث نفسه و في عينيه تلك النظرة التى لا يخطؤها عاشق، تلك النظرة التى تفضح صاحبها دوما، تلك النظرة التى أهلكت البشرية بأكملها بحثا، تلك النظرة التى ستشعر بها راوية بكل تأكيد، من بين ظلمة عينيها لن ترى سواها.

بحبها، بحبها قوي، أنا بحبها من زمان، و هي مش حاسة بيا خالص، لأنها مش شايفاني، و طبعا عمري ما عرفت أكلمها قبل كدة، كنت بفضل طول الوقت أراقبها من

بعيد، طول الوقت هي حزينة، مكتئبة و حالتها بتسوء، و أنا بيبقى نفسي أساعدها أقولها أنتي مش لوحدك، بس عمري ما عرفت.

تنهد، و رأيتُ جسده و هو يرتجف و أكمل قائلا:

- تعرف أنا حالتي النفسية كانت أتحسنت و كتبولي على خروج، لكن مقدرتش أمشي و أسيبها، أتظاهرت بأني تعبان، و بقيت أمثل الأعراض إلى كانت عندي قبل كدة، استحملت جلسات كهربا، و أدوية وحقن، و حاجات كتير بس عشان أفضل جمبها و أشوفها كل يوم.

- يااااه، دا أنت بتحبها قوي بقى.. تعرف أنا كمان كنت بحب زيك كدة

- بجد يعني هتحس بيا..؟

- طبعا ، أنا حاسس بيك، أنت أكيد نفسك تشوفها دلوقتي، صح..؟

- هموت و أشوفها بس هي مش بتخرج من أوضتها أبدا، كمان مش عارف أدخلها.. لو تخرج بس أبص عليها بصة واحدة.

- أنزل الجنينة و سيب الباقي عليا.

****

في غرفة راوية، عندما رأتني أرتبكت، تظاهرت بأنها لا تراني، ربما تظن بأنني مجرد وهم، أقنعها الأطباء بأنني هلوسة و عليها التخلص مني.

جلستُ بجوارها و بدأتُ الحديث

- راوية أنا عارف أنك مستغربة من إلي بيحصل، بس أنا ممكن أشرحلك، مع إن أنا نفسي مش فاهم حاجة.

تنظر تجاهي، لا يبدو عليها أي رد فعل من حديثي، و كأنها لا تسمعني، أنصرف الطبيب .

قالت

- هو أنا لية مش سامعة صوتك..؟، أنا شايفة شفايفك بتتحرك، بس مش سامعة أنت بتقول إيه.

- غريبة، يعني أنتي تشوفيني و متسمعنيش، و هو يسمعني و ميشوفنيش.

- حرك شافيفك بالراحة و بصلي عشان أفهم بتقول إيه.

- "ت ع ا ل ي ، ن ن ز ل ، ا ل ج ن ي ن ة.."

هزت رأسها موافقة، دخلت الممرضة واستأذنتها أن تذهب للحديقة و وافقت.

في الحديقة توجهنا نحو يوسف الذي بمجرد أن رأى راوية هب واقفا و العرق يتصبب منه.

جلس ثلاثتنا، إنها المرة الأولى التى يجلس فيها يوسف و راوية معا.

بدأت الحديث

- مش هتفهّمني، أنت حقيقي و لا دي مجرد أوهام و أنا مجنونة.

فهم يوسف حديثها من حركة شفاهها، و قال

- قلها أني معاكو.

نظرتُ لأرى هل تسمع يوسف مثلما أفعل، و لكنها لم تسمعه..!

شرحتُ لها نفس القصة التى ألقيتها على مسامع يوسف، و أضفتُ إليها قصتي مع يوسف و أنه موجود.

تملكتها الدهشة، لكنها أرادت أن تصدقني على أن تصدق أطباءها و تقتنع بأنها مجرد مجنونة أو مريضة نفسية، على الأقل معي هي ترى.

طلبت أن تتحسس وجه يوسف لتتأكد من وجوده

هز رأسه موافقا.. قبل أن أسأله، هو يتابع كل حركة تصدر عنها، يدرك كل كلمة تتفوه بها، دون أن أخبره.

****

أقترب بوجهه منها، تلمسته بأناملها الدقيقة، سرت قشعريرة في جسده، رأيتها و شعرت هي بها، فأبعدت يديها.. و تنحنحت في حرج

- أنا آسفة.

فقال هو و كأنها تسمعه

- مفيش داعٍ للأسف.

جلسنا هكذا حتى أسدل الليل ظلامه علينا، أتفقنا أن تخبر راوية الأطباء بأنها كانت بالفعل تتوهم، و بأنها ما عادت ترى هذا الشخص.

في نهاية اللقاء سألني كلاهما في نفس اللحظة، حتى أن صوتهما جائني صوت واحد

- هو أنت اسمك إيه..؟

ضحكتُ كثيرا من تزامن سؤالهما، تعجب كلاهما و قالا ثانيا في نفس اللحظة

- أنت بتضحك على إيه..؟

- أصل أنتو الأتنين أتكلمتو في نفس اللحظة.

ابتسمت راوية في خجل، و ضحك يوسف..

- ها اسمك إيه..؟

للمرة الثالثة ينطقون سويا، ضحكتُ فضحك كلاهما، نظر يوسف لراوية التى تضحك، شعرتُ بأنني استمع لدقات قلبه، و يبدو أنها أيضا شعرت بها فقد ألتفتت تجاهه مما أزاده أضطرابا بالرغم من أنها لا تراه، نقلت بصرها في خجل، أعلنه تورد وجنتيها.

- اسمي.. رفعت، رفعت أبو المعاطي.

ضحك كلاهما، تعجبتُ

- إيه بتضحكو أنتو الأتنين على إيه؟

أجابتني راوية حيث أن يوسف كان مشغولا بتأملها

- رفعت أبو المعاطي ، اسمك قديم قوي.

قال يوسف

- فعلاً.

تضايقتُ من سخريتهم، كيف يسخرون من اسم أبو المعاطي، ذلك الاسم صاحب " الشنة و الرنة"

أتجهنا للغرف، قال يوسف

- أول مرة أشوفها بتضحك كدة، بجد شكرا.

- يا أخي لا شكر على واجب.

تسائلت راوية ، عما أقوله.

فقلتُ لها

- لما أوصلك أوضتك.

دخل يوسف غرفة 19 بعد توديعنا و موعد للقاء غدا..

ذهبنا غرفة راوية التى تسائلت ثانية

- كان بيشكرك على إيه..؟

- عليكي.

تعجبت و قالت

- إزاي يعني..؟

أخبرتها بكل ما يكنه لها يوسف، أخبرتها بما قاله، و بما شعرتُ به و رأيته بعيني، أخبرتها كيف كان ينظر إليها اليوم..

أحمرت خجلا من حديثي، و بدت عليها السعادة، تركتها في أحلامها الوردية على أمل اللقاء غدا..

****

في المساء ذهبت إلى منزلي، أو منزله، جلس وحيدا يقرأ في مصحفه، يحتسي كوبا من الشاي..

رن جرس الهاتف،

- أزيك يا هالة عاملة إيه؟

- .....

- لا أنا كويس الحمد لله.

- .....

- و الله طب ألف مبروك.

- لا طبعا انتي بتقولي إيه ، أكيد هاجي، خلاص الإسبوع الجاي إن شاء الله هاخد قطر اسكندرية و أجيلكو..باركي لحبيبة خالو على ماأجي.

سيذهب للإسكندرية، مدينتي المفضلة، مولد حبي، مسقط رأس حبيبتي، ربما أراها .. ربما أقابلها، ربما تشعر بوجودي، ربما تراني..

ظل الأمل يعبث بي حتى الصباح.

في المشفى ، لم نفترق خلال هذا الأسبوع، أخبرتُ راوية و يوسف برحيلي، أخبرتهم بأنه ربما ألتقي بحبيبتي، جزع كلاهما، طمأنتهما بعودتي، و تمنا لي الخير.

طلبتُ منهما البقاء معا، أن يتقربا، يقضيا الوقت سويا، و يبدو أنني طلبتُ شيئا قد أقدما عليه سلفا، فقد رأيتُ الحب ينبت بينهما دون سابق إنذار، بدأت راوية تشعر بوجود يوسف دون أن أنبهها، يفهم حديثها من حركة شفتيها، أخترعا طريقة جديدة للتواصل، فهو يمسك بيديها و يكتب ما يريد قوله، و هي تفهم.

" أنت أكمه، و أنا أصم أبكم؛ إذن فلتتلامس الأيدي و لنتفاهم"

جبران خليل جبران

رمل و زبد

في اليوم السابق لموعد سفري، رأيته يمسك بيديها، و يكتب "أحبك" إرتبكت، إحمرت خجلا لكنها حركت شفتيها بنفس الحروف " ب ح ب ك "

قبَّل يديها في حب، لكن هذا لم يمر على إحدى الممرضات الخبيثات، و التى مهمتها الوحيدة هي نقل أخبار المرضى، و تصيد الأخطاء, و بالفعل بعد عدة دقائق جاء أحد الأطباء بصحبة الممرضة الرفيعة ، التى تبرز عظامها، ربما هي نحيفة من كثرة الحركة فما تلبث أن ترى شيئا و تذهب مسرعة لنقله.

****

لكن خاب أملها عندما رأت كل منهما يجلس بمفرده ـ بالطبع بعد أن نبهتهما ـ ، و ما ساعد في إنقاذ الموقف هو قدوم أهل راوية لزيارتها، و والدة يوسف لرؤيته.

رأيت السعادة في عيون مديحة عندما أخبرها الطبيب أن حالة راوية تحسنت و يمكنها الخروج في أي وقت، لكن دموع راوية هربت لتعلن عدم موافقتها، أعتقد الجميع بأنها دموع فرحة.

خرج الجميع بعد أن طلبت راوية ذلك.

بدأتُ الحديث

ـ متقلقيش ، أنا هتصرف.

قالت من بين دموعها

- إزاي؟ هتعمل إيه؟ أنا كدة مش هشوفه تاني.

- متخافيش هو أصلا، كان مكتوبله خروج قبل كدة و هو إلي بيتظاهر أنه تعبان عشان يفضل معاكي.

- هو يعني حتى لو خرج هعرف أشوفه تاني.

- هو أنتي نسيتيني خالص.. أنا هجيبهولك لحد عندك، متخافيش بقى، أفرحي إنك هترجعي لحضن مامتك، و أنا هتصرف.

هممت بالرحيل فأستوقفتني

- رفعت أبو المعاطي.

إلتفتُ إليها

- نعم.

- شكرا.

في غرفة يوسف، يتحرك جيئةً و ذهابا، يضرب كف بكف، يخبط رأسه في الحائط

- إزاي ، إزاي يقولو إني مريض، و ميسمحوليش بالخروج؟، أمال لو مكنتش بمثَّل.

- أهدى يا يوسف، إنفعالك مش هيحل المشكلة.

هنا دخل طبيب، ألقى نظرة ساخرة على يوسف، و قال

- عشان متبقاش تمد إيدك على حاجة مش بتاعتك، مش أنت بتحبها أديها هتمشي، و أنت هتفضل هنا لوحدك.. يا أطرش.

لم ينتبه له يوسف، الذي جلس موليا ظهره للباب، وضع الطبيب شيئا ما في أدوية يوسف، و خرج ظنا منه بأن جريمته لم تُكتشَف،

لم يكن يدري بأن هناك عين تراقبه من حيث لا يعلم و أذنان تسمعانه.

طلبتُ من يوسف الهدوء، أخبرته بأنني سأحل المشكلة.

****

تبعتُ الطبيب الذي دخل إحدى الغرف و أغلق بابها بالمفتاح، ما أغباه..!، هو لا يعلم بأنه يمكنني الدخول حتى من الباب المغلق، و إن لم أفعل ألا يعلم بأن الله يرى ما في نفسه قبل ما يظهره.

كانت تلك الممرضة النحيفة في انتظاره، أعطاها بعض النقود، طلب منها أن تبقى بغرفة الصبي، تتابعه ، تجعله يتناول الأدوية بإنتظام، غدا سيُعرَض على لجنة خارجية، و يجب أن يبدو في أقصى حالات الجنون.

- أنت بتعمل كل ده ليه..؟ يا دكتور أحمد.

- البنت دي بتاعتي، من أول يوم هنا و هي بتاعتي أنا بس، أنا إلي مشرف على علاجها أنا إلي بساعدها، يجي

هو عالجاهز و ياخدها مني، دا بعده، مشكلته أنه غبي أنا فاهمه من زمان قوي، بس هو عمره ما قربلها، لكن المرة دي أتعدى حدوده.

- طب ليه كتبتلها على خروج.

- دكتور فؤاد الغبي هو إلي كتبلها، أنا خلاص كنت مستنيها تتعالج على نار، عشان تبطل صريخ، و صوت عالي، و كمان مستنيه يسافر المؤتمر، جه هو و كتبلها خروج قبل سفره بيوم.

- للدرجة دي بتحبها.

- بحب إيه أنتي كمان، هحب واحدة عامية، هي بس عاجباني.

قالت بميوعة

- طب و أنا يا دكتور.

- انتي إيه..؟

- مش عجباك..؟

أقترب منها، و نظر إليها نظرات شهوانية..

- لا أزاي..دا أنتي قمر.

أنصرفتُ لغرفة راوية، مذهولا مما سمعت، فهذا الحقير تخلى عن مبادئه و قيم مهنته والأهم أنه تخلى عن إنسانيته، موعد خروجها غدا، بالطبع سيفعل فعلته الليلة فهذة آخر فرصة له، يالا حقارته..!

وجدتُ الملاك نائما في إنتظار حلول الصباح، لتحصل على حريتها، لا تعلم بأن هذة الليلة التى خطط الشيطان فيها أن يسلبها حريتها، تلك الحرية التى لم تختبرها يوما، بل ما هو أكثر، مستقبلها، أحلامها، آمالها، براءتها، طهرها، حياتها، سيسلبها كل شئ.. كل شئ.

- راوية ، أصحي يا راوية، أبوس إيديكي أصحي.

هي بالطبع لا تسمعني، حاولتُ أن ألمسها حتى أوقظها، لكن دون جدوى فقد أخترقتها يدي كالعادة.

لا أدرى ماذا أفعل، لمن أذهب..؟

يجب أن أساعدها، لا استطيع أن أقف مكتوف الأيدي أراقبها تعاني، تتمزق، تتشتت، تنهار، لا يمكنني أن أراها تموت أمام ناظري.

لجأت إلى الله فلا أحد يعلم بحالى سواه، دعوته أن يرحمنا أنا وهذه الضعيفة فنحن لا حول لنا ولا قوة، يا رب ساعدني، مالي

سواك، فلتخلصها مما هو قادم، يا رب نجها كما نجيت إبراهيم و ولده، فلتجعل خطتهم الشيطانية بردا و سلاما عليها، يارب أجعل كيدهم في تضليل، يارب ألهمني الصواب..

و في هذه اللحظه خطر يوسف على بالى فقررتُ الذهاب إليه عله يساعدني في إيقاظها.

هرولت مسرعا بكل طاقتى إلى غرفة يوسف، قابلتُ ثنائي الشر في طريقي، يسيران بإتجاه غرفتها.

سمعته يقول

- أقفى راقبيلي الجو هنا.

- يا سلام، أنا إلي هراقبلك الجو كمان، هي أحلى مني في إيه.. يعني؟

تركتهما في هذا الشجار و ركضتُ و أنا أدعي من أعماقي أن يطول.. يا إله السماوات و الأرض ساعدنى.

شعرتُ بقدمي تتراجع مع كل خطوة أخطوها، شعرت و كأنني أقاوم أمواج البحر، تسحبني قوته الخفية، أتحرك عكس التيار دون جدوى، هل جربت يوما أن تصرخ في حلم ما، و لا يخرج صوتك؟، هل حاولت يوما الركض في حلم ما، و لم تسعفك قدماك؟ يا له من شعور!

وصلتُ أخيرا لغرفة يوسف، لكني وجدتها فارغة..!

أين يمكن أن يكون في مثل هذا الوقت؟، هل أختار هذا الوقت تحديدا ليترك غرفته؟!، هو لا يخرج إلا نادرا، لماذا تتفق جميع الأشياء مع الشر؟!، لماذا تساعده الأقدار؟!، لماذا تقف في وجههي؟، لماذا تعاندنا الحياة دوما؟، لماذا تبخل عليها بلحظات قليلة من السعادة؟، و كأنه قد كُتب عليها الحزن الأبدي و الألم المستمر، لا، لن يحدث هذا، لا بد من طريق لأسلكه.

أخذتُ أناديه بأعلى صوتي، فلن يسمعني غيره، تردد اسمه في جميع أرجاء المشفى، شعرتُ بصوتي يختنق، يعلو حينا و يخفت حينا، شعرت باسمه يتحشرج في حلقى، صدى صوتي يعلو و يعلو.

أرجوك يا يوسف فلتسمعني، أرجوك أنتبه لي، فلتجعل لوجودي فائدة، فلتجعل لحاستك المفقودة، العائدة، تلك الطبيعية، الخارقة جدوى، ركضتُ للحديقة بحثا عنه دون جدوى،

أدري بأن لا أحد سينقذها سواه، أين هو..؟ أين أنت يا يوسف..؟

****

عجيب هو قلب الأم، لا يكذب أبدا، مهما خدعته الظروف، مهما راوغته الأقدار، هو دوما ما يصيب، لا يمكنه أن يهدأ، لا يمكنه أن

يسكن أو يستكين إذا أصاب أولاده مكروه، يشعر بهم عبر المسافات و الأزمان.

جلست مديحة، تستمع لحديث قلبها، و تحاول ترجمته بلسانها

- أنا قلقانة قوي على راوية يا حج، قلبي واكلني عليها.

- ليه بس يا مديحة، ما هي بقت الحمد لله كويسة، و هتخرج بكرة وترجع بيتها و تبات في حضنك، المفروض تكوني فرحانة، و لا أنتي عايزة تاكلي عليا الرز بلبن الي وعدتيني بيه.

- مش عارفة حاسة بقبضة قلب، و مش مرتاحة نفس الإحساس إلي حسيته لما راوية عملت الحادثة.

- ليه بس جايه تفتكرى الحادثه الوقتى ، اذكري الله، و أطردي الأفكار دي من دماغك.

صمتت مديحة في محاولة لطرد هذة الأفكار من رأسها، تحاول أن تكَّذب قلبها، لكن قلبها لم يطعها، و وافته الذكريات، التى أبت إلا أن تجتاحها و تقتحم ليلتها الحالمة، و كأن مقابل كل فرحة نعيشها، تقف دمعة حزينة حاقدة، ترفض تلك الإبتسامة التى ترتسم على وجوهنا، تقاتل بكل شراسة لتطردها و تحل مكانها، و لا نلبث إلا أن نطيعها.

وجدت نفسها تغرق في تلك الذكريات الحزينة، رحلت بعيدا و استرجعت مرارة الماضي التى تجرعتها مرارا و تكرارا، سرحت بأفكارها إلى أن استقرت على ذلك اليوم الذي طرق سالم والد راوية باب بيتها طالبا يدها للزواج ..!

وترقرقت عيناها بالدموع ثم قالت

- عارف يا حج فعلا حياتى كلها اتغيرت في اليوم ده، يوم حادثة راوية.

حاول العجوز أن يجاريها في الحديث، فهو يعلم أنه لن يستطيع إخراجها من ذكرياتها، فترك لها زمام الحديث و جعلها تبوح بما في صدرها لعلها ترتاح من الماضي و تنسي قلقها على رواية.

سألها سؤالًا ظن أنها تنتظره، و كأن الماضي يجثم على صدرها بقوة، تريد أن تتخلص منه، ظلت تحبسه بين رغبة البوح و خوف الندم، أرادت أن يسألها فيزيل عبأ قرار البوح من فوق كتفيها، و كأن سؤاله بمثابة تأشيرة ، وحدها ستمكنها من الخروج من هذا العالم، وحدها ستمنحها حق الرحيل عن ماضٍ يرفض أن يتركها.

فسألها

- صحيح هي الحادثة دي حصلت إزاي..؟

أراحها السؤال، صمتت قليلا، و نظرت إلى اللاشئ و كأنها تستحضر الموقف، ثم قالت

- أنت عارف يا حاج أن أنا أصلا من المنصورة، مش من هنا.

أومأ الرجل رأسه،

فأكملت

- جه سالم و أتقدملي، كان رجل جاهز من كله، و أبويا وافق و أنا مقلتش لأ.

- يعني أنتي مكنتيش عايزة و هو غصبك..؟

- لا الحق يتقال، أنا و لا كنت عايزاه و لا مكنتش، عادي مكنش فارق معايا، و لما أبويا وافق وافقت.

المهم أننا اتجوزنا، و عشت معاه هنا في القاهرة، في الأول كان كويس و بيعاملني بما يرضي الله، و أنا أبتديت أحبه بعد الجواز، و كنت مبسوطة و مرتاحة معاه، و لما جبنا راوية كان طاير من السعادة و بيحبها حب، و هي كمان كانت روحها فيه، ومتعلقة بيه عالأخر.

قاطعها الرجل

- كنتو عايشين هنا، أصل أنا من ساعة ما رجعت من دبي و أنتو هنا لوحدكو، هو مش معاكو..؟

- لا يا حج أنا جيت هنا بعد إلي حصل.

- المهم، أننا قعدنا بعد راوية فترة طويلة منخلفش، فروحنا للدكتور، ربنا يسامحه هو الى خرب بيتى يوم ما قال لجوزى من غير ما يحسب حساب إنها هتدمر بيت مسلم من غير ما يتأكد أو يعيد الكشف عليه تانى، قاله إنه.. إنه مبيخلفش .. !

- إزاي يعني..؟ قالها الرجل من بين دهشته، التى ارتسمت على ملامحه.

- ماهو ده إلى معرفوش، طبعا القيامة قامت، و لما روَّحنا ضربني و بهدلني، و قالي أبشع الألفاظ.

بدأت مديحة في البكاء

- بيقول عليا خاينة، و كلام تاني مقدرش حتى أقوله.. مع أني والله العظيم عمري ما كلمت راجل غيره، لا قبله و لا و أنا متجوزاه، هخونه إزاي بس..؟ حد يقلي.

- و بعدين كملي.

- كانت اليوم ده راوية في المدرسة، قلت الحمد لله إنها مرجعتش و شافت أبوها و أمها كدة.

- فضلت أترجاه و أبوس إيده و رجله، و قلتله نروح لدكتور تاني يمكن ده غلطان.

عادت للبكاء من جديد

- خلاص يا مديحة، مش لازم تكملي، بلاش تعيطي، الكلام ده الوقتى لا هيقدم ولا هيأخر إلى حصل حصل يا بنتى من زمان وانتهينا.

دخلت ضحى في هذة اللحظة، تفرك عينيها من أثار النوم.

قالت مديحة

- إيه إلي نزلك يا ضحى..؟

- صحيت لقتني لوحدي و خفت.

قال الجد

- تعالي يا ضحى. و فتح ذراعيه

أقتربت الفتاة لتجلس في حضن جدو، الذي أصابته الشفقة من حديث مديحة، و أخذ يفكر، كيف حدث هذا، و كيف أنجبت

ممديحة ضحى بعد ذلك، لكنه تجنب سؤالها، حتى لا يحرجها، و كذلك خوفا على الصغيرة.

****

في حمام غرفته ، أخترقتُ الباب دون استئذان، وجدتُ يوسف ملقى أرضا فاقد الوعي..!

دهشتُ كثيرا، يا تُرى ما الذي حل به..؟، هل أختار القدر اليوم ليصيب الحبيبين، يا لا دقته!

ناديته بهلع

- **يوسف رد عليا أنت كويس.**

لم يجبني، حاولتُ أن أوقظه لكن دون جدوى.

تذكرتُ الطبيب و ما وضعه من أدوية ليوسف، كيف لم أدرك بأنها مجرد خدعة، لا يمكن أن تمر زيارة طبيب بمثل أخلاقه ليوسف هكذا، هل أعتقدتُ بأنه فقط يؤدي عمله؟ ، يا لني من أحمق..!

كيف نسيت أن أخبره ألا يتناول تلك الأدوية التى دسها له أحمد..؟

أخذت أصرخ في وجهه عله يسمعني، الهلع يصيبني، أرجوك أن تستفيق، راوية بحاجتك، راوية في وارطة، حاولت كثيرا دون جدوى، هو في دنيا أخرى.

تركته و توجهت لراوية، أقتربتُ من الغرفة، وجدتُ الغرفة مضاءة، الكثير من الحضور، أطباء، رجال الأمن، ممرضات، الجميع مجتمع، أصوات عالية، همهمات،صراخ ، و راوية تبكي.

أشعر بأنني قضيت وقتا طويلا في البحث، يبدو أن هذا الوحش قد أنتهى من جريمته منذ زمن.

رأيتُ د/ أحمد واقفا أمام باب غرفتها.

- والله محصلش حاجة يا دكتور فؤاد، هي الي مريضة و بتحب تصرخ كدة على طول.

- يا د/ أحمد أنت عارف أنها اتحسنت و كان مكتوبلها خروج، هترجع فجأة تتعب، مش منطق.

علا صوت أحمد و أحمر وجهه

- يا دكتور البت دي مجنونة أصلا، و حاولت تنتحر قبل كدة، و بتتبلى عليا.

- هنشوف يا دكتور إذا كانت بتتبلى و لا لأ، في قانون، و في تحقيق.

- لا تحقيق إيه و بتاع إيه، هتحقق معايا عشان واحدة مجنونة.

هنا أرتفع صوت د/فؤاد و قال في حدة

- دكتور أحمد أنا هنا إلى أقول ينفع و مينفعش، و التحقيق هيتم، و راوية مش مجنونة، راوية مريضة نفسية عندها إكتئاب، و خلاص أتعالجت و أتكتبلها خروج، الدور و الباقي على إلي محتاج يتعالج لسة.

حاول د/ أحمد أن يضيف شيئاً، لكن د/ فؤاد أوقفه بحركة من يده

- التحقيق هيبين كل حاجة و في شهود.

دخلتُ الغرفة، رأيتها تجلس ضامة قدميها إلى جسدها الصغير، و تطوقها بيديها، وجدت وجهها أحمر، تبكي، ترتجف.

بكت راوية أكثر فور رؤيتي، و تحدثت أمام الجميع و لم تبالي

- رفعت ألحقني أنا أنتهيت.

****

نامت ضحى في حضن جدو، فأخذتها ممديحة لشقتها..

- تصبح على خير يا حج، معلش أنا صدعتك بمشاكلي.

- لا يا مديحة لا صداع ولا حاجة، دا أحنا أهل، أحنا بقالنا فترة طويلة مع بعض عمري ما فكرت أسألك عن تفاصيل حادثة راوية، ما توقعتش الموضوع يبقي بالتعقيد ده.

- يا حج و لا يهمك، أنا عارفة أن في سؤال في راسك، إن مكانش يضايقك هطلَّع ضحى، و أجي أكملك، أنا مش عايزاك تاخد عني فكرة وحشة.

قال الرجل و قد غلبه الفضول

- ماشي.. هعمل شاي على ماتنزلي.

تركته مديحة وصعدت لتضع ضحي في فراشها، و قد أدركت أنها فتحت بابا يجب أن تدخل منه و تسير الطريق لأخره حتى تتمكن من إغلاقه للأبد، يجب أن تحكي ما حدث و لو مرة واحدة، تعلم أنها أثارت حيرة الرجل، فعرضت عليه أن تكمل حديثها ولكن بعيدا عن آذان ضحي .

انتظر العجوز عودة مديحة بفارغ الصبر، فقد أثار حديث مديحة ظنونه، و حيرته، و أفرغ عليه من الدهشة، ما يجعل الفضول يغلبه، و لأول مرة لا يستطيع مقاومته.

ولولا طول (العشرة) بينه وبين مديحة و ضحي، ومعرفته بها و بأخلاقها لكان ظن بها الظنون هو الآخر.

عادت مديحة بعد أن وضعت ضحى في فراشها، وضع الرجل أكواب الشاي، و أخذ يرتشف كوبه بنهم، كما يرتشف كلمات مديحة. بينما أخذت هي تعبث بكوبها قليلا، و كأنها تحاوره و

تشهده على ما تقول، أرتشفت منه رشفات قليلة و هي تشعر بأن همومها تنزاح مع كل رشفة، كلما ألقت بكلماتها على مسامع العجوز، و كأن البوح أحيانا هو العلاج الوحيد لمشكلات ظلت عمرا حبيسة بداخلنا.

- أنا عارفة أنت زمانك بتسأل دلوقتي أنا إزاي جبت ضحى و يمكن تظن فيا سوء.

- لا يا بنتي، و لو مش عايزة تكملي بلاش. قالها بلسانه و أنكرتها عيناه، فالفضول يرتسم على جميع ملامح وجهه.

- لا يا حج هكمل دي أول مرة ف حياتي أحكي لحد الموضوع ده، حتى أهلي ف المنصورة خبيت عليهم.

- ياه مقلتلهمش إلي حصل.

- أيوة يا حج محدش يعرف حاجة، فهمتهم أن حادثة راوية قضاء و قدر، و لما سالم مات محبتش أفتح دفاتر قديمة، و أتكلم ف حاجات مش هتفيد.

- أحنا لما رحنا لدكتور تاني، قلنا نفس الكلام و أن جوزي مبيخلفش..!

- حاجة عجيبة..!

- طبعا المرة دي مستناش أما نرجع البيت، هو بدأ ضرب و شتيمة و أحنا عند الدكتور، و نزلني من عنده و هو بيشدني من هدومي و قطعهالي، والشارع كله أتفرج عليا، ربنا يسامحه بقى، و لما جينا عند البيت شافتنا راوية و هي راجعة من المدرسة، طلعت تجري علينا و هي بتعيط، قام أبوها.....

هنا إزداد نحيبها، و وضعت يدها على وجهها و أخذت تبكي.

قام الرجل ليحضر لها ماء.

- خدي اشربي يا مديحة

أخذت الكأس بيد مرتجفة..

- والله يا حج ما عملت حاجة و لا عمري خنته و لا حتى فكرت أخونه، و ربنا هو الشاهد.

- مصدقك يا مديحة من غير حلفان، ربنا يسامحه على سوء ظنه.

- حسبي الله ونعم الوكيل أنا مبقولش غيرها.

******

- راوية أنتي كويسة، إيه إلي حصل قوليلي بسرعة..أحمد عملك حاجة..؟

ازداد بكاؤها ..

- ردي عليا أرجوكي.

- أحمد دخل و أنا نايمة، فجأة لقيته جمبي، استغل عمايا، و فجأة لقيته بيرفع الغطا من عليا.. و حط إيده على بؤي.

أزداد نحيبها، قلتُ و الدموع تخنقني

- كملي.

- فجأة سمعت أصوات عالية، و جه دكتور فؤاد، و بقيه الدكاترة..أنا خايفة قوي، هو ليه بيعمل كدة..؟!

تنهدتُ و أخذتُ نفسا لأدخل بعض الهواء كي أمنع إنكماش رئتيا.

- الحمد لله ، الحمد لله.. أطمني يا راوية، أنتي ف أمان دلوقتي.

هممتُ بالخروج لأفهم ما حدث فاستوقفتني

- متسبنيش أنا خايفة.

- متخافيش، أنا جنبك.

بقيتُ بجوارها، استمر بكاؤها، و بدأت تتحدث من بين دموعها..

- أنا حسيت أن مليش حد في الدنيا يحميني، و لا يخاف عليا، أبويا مش موجود، و أمي بعيدة عني.

- أنا يا راوية معاكي و مش هسيبك، و ربنا معانا إحنا الأتنين.

- تعرف يا رفعت، أنا أبويا هو السبب في كل إلي أنا فيه، و بالرغم من كدة في اللحظة إلي دخل فيها الحيوان ده و بدأ يحط

إيده عليا، كل إلي فكرت فيه إني عايزة أبويا، عايزة يحميني زي ما أي أب بيعمل.

صمتُ، لا حديث يصلح للموقف..

فأكملت هي و كأنها تلقي بعبأ يجثم على صدرها..

- في يوم و أنا راجعة من المدرسة زي أي بنت، راجعة فرحانة بالهدية إلي المُدرسة إدتهالي عشان جاوبت سؤال صح.. و كل فرحتي هي إني هوريها لبابا، عشان هو إللي ذاكرلي الدرس ده و

هو إللي خلاني جاوبت السؤال، محدش جاوبه غيري، كنت ناوية أديله الهدية، كانت قلم فيه ألوان كتير، و قعدت أفكر أني

هكتب بيه جواب لبابا و أقوله شكرا و أني بحبه قوي و هكتب كل كلمة بلون، و أديله القلم.

- وبعدين.. إيه إلي حصل؟

- رجعت لقيت بابا بيشد ماما من هدومها و مقطعها في الشارع و بيضربها قدام كل الناس.

انهمرت الدموع من عينيها

- جريت عليهم ، و أنا خايفة و بترعش، لسة بقرب من بابا، و بناديله، كنت عايزة ينقذ ماما، فكرت أن حد تاني هو إلي عمل

فيها كدة، و كنت هقوله إلحق شوف ماما, كنت عايزاه يحميها و يحميني.

- فجأة بصلي، و عنيه بتطلع شرار، قربتله، و رايحة أترمي ف حضنه، ساب ماما عالأرض، و جه ناحيتي فتحت إيديا زي ما دايما كان بيعملي، لقيته شالني و زقني ناحية الطريق.

أخذت تبكي و تتشنج، وتتعالى شهقاتها.

- رماني عالأرض وقعت على راسي.. و أتعميت.

صمتت قليلا ثم أردفت

- أتعميت و أ تيتمت في يوم واحد.

****

في صباح اليوم التالي، استيقظتُ متأخرا بعد أن أمضيتُ اليل كله أتحدث إلى راوية و أحاول تهدئتها، و هي تبكي و خائفة، تقص ما حدث في ماضيها الأليم، كيف ألقى بها والدها في الطريق، بعد أن ضرب أمها و مزق ثيابها و ألقى بها هي الأخرى، لم تفهم ما حدث في البداية.

ظلت في حالة نكران، تنتظر والدها يأتى ليخلصها من الشخص الشرير الذي ضربها و ضرب والدتها، الشخص الذي يشبهه كما أقنعت نفسها..

و أيضا ظلت تخبر أمها بأن الكهرباء انقطعت و ستعود قريبا لذلك هي لا ترى، حتى استفاقت من حالتها لتخوض مراحل أسوأ، كيف فعل بها والدها هكذا؟!

كيف طاوعه قلبه؟، لقد بكت كثيرا و هي تخبرني كيف انتظرته سنوات، و هو لم يفكر أن يأتى يوما لزيارتها، ما حدث لها عندما علمت أنه مات، لقد عانت كثيرا، لم تتحسن إلا في وجود يوسف، و عندما بدأت تعيش حياتها بصورة شبه طبيعية، يأتى أحمد و يخربها، يا له من حقير!

جاءت مديحة في الصباح الباكر، بعد أن اتصلت بها إدارة المشفى، تركتها برفقة والدتها، و أخبرتها أني ذاهب ليوسف.

أخذت مديحة تبكي فور سماعها ما حدث لأبنتها، ثم أخذتها في أحضانها وأخذتا تبكيان سويا.

- ليه يا ماما الرجالة كلهم وحشين.

- ده بني آدم معندوش ضميرو لا رحمة ، حقير و حيوان.. الحيوان ده هياخد جزاءه و الله مانا سايباه إلا أما اسجنه.

- كلهم وحشين كلهم، أنا بكرهم كلهم.

أخذت مديحة ابنتها في أحضانها أكثر، فهي أيضا ترى جميع الرجال سيئين.

- أنا هروح لمدير المستشفى أكمل التحقيق، و أشوف وصل لفين.

وقبل أن تكمل جملتها، طُرق الباب، ودخل دكتور فؤاد..

- أهلا يا مدام مديحة، إزيك دلوقتي يا راوية، تقدري تتكلمي مع الظابط.

صاحت مديحة :

- كدة يا دكتور فؤاد، كدة أنا استأمنتك على بنتي، و ف الآخر يحصلها كدة و ف المستشفى بتاعتك.

- والله يا مدام مديحة أنا ما نمت من إمبارح، و الله راوية زي بنتي بالظبط و اللي يمسني يمسها، بس ده دكتور مكنتش أعرف أنه حقير كدة، و الحمد لله ربنا سترها.. أنا والله كنت رايح مؤتمر مهم النهاردة و أجلته عشان أحقق بنفسي في الموضوع، و أجيب لراوية حقها.

قال الضابط:

- ها يا أنسة راوية، نقدر نبدأ التحقيق.

أخذت راوية تقص ما حدث، و تم استدعاء الممرضة، و كانت شهادتها في صالح راوية، كما أنها اتهمت د/أحمد بالإعتداء عليها أيضا، و كذلك شهد د/ فؤاد في صالح راوية.

****

في غرفة يوسف و قد بقي عدة ساعات على موعد الكشف الطبي، و كذلك موعد سفري للأسكندرية، رأيتُ يوسف مازال فاقدا الوعي، يبدو أن تأثير الدواء الذي تناوله بالأمس مازال مسيطرا عليه.

سمعتُ الممرضات يمارسن هوايتهن المفضلة ـ الثرثرة ـ

ـ أما نرجس دي طلعت حكاية، خدت الفلوس من الدكتور و بعدين بلغت عنه.

ـ ماهي الست لما بتغير، أو حد يجي عليها تبقى مفترية أسأليني أنا.

فهمتُ من حديثهن أن الممرضة النحيفة، نصبت فخا لدكتور أحمد، تركته يدخل لراوية ثم أخبرت الجميع بما يحدث و أولهم دكتور فؤاد.

سمعتهن يتحدثن عن يوسف :

ـ لو فضل كدة لحد معاد الكشف يبقى أكيد هيفضل هنا.

- الواد ده كل معاد كشف، يمددوله المدة.. شكله هيشرفنا كتير.

يوسف الآن في ورطة، يبدو أنه لن يفيق إلا عندما تأتى اللجنة الطبية، و سيكون في حالة سيئة و بالطبع سيبقى بالمشفى، كيف يمكنني مساعدته..؟!

ذهبتُ لراوية وجدتها مازالت منهارة و متأثرة بما حدث، تبكي في أحضان والدتها، حاولت أن أقترب منها أو أحدثها ولكنى خفت أن أثير شكوك والدتها عندما تراها تتحدث إلى الفراغ..!

ولهذا انتظرت حتى خرج الجميع و استدعى الدكتور فؤاد مديحة لإكمال بعض الإجراءات فذهبت سريعا لكى أتحدث مع راوية و عندما ذكرت اسم يوسف صرخت و قالت الرجال جميعهم كاذبون، مخادعون، أكرههم.

- راوية دا يوسف، أنتي عارفة أنتي بتقولي إيه، انتي الوحيدة إلي ممكن تساعده، أرجوكي متخليش إلي حصل ده يأثر عليكي، يوسف مش زي أحمد و مش زي باباكي.

ولكنها أخفت وجهها في كفيها و أخذت تبكي

- الرجالة كلهم زى بعض يا رفعت، مش بيهمهم غير نفسهم.

- بس ده يوسف يا راوية، الشخص الوحيد إلي حبك في الدنيا دى، وهوا أكتر واحد بيخاف عليكى.

- كداب، محدش بيخاف على حد ولا بيحب حد في الزمن ده حتى الأب و بنته. قالتها وهي تصرخ في وجهي .

- لو كان يوسف بيحبنى زى ما أنت بتقول مجاش ليه امبارح، مجاش يطمن عليا النهاردة ليه و يحسسني إنه واقف جمبي، أنا محتجاله أكتر من أي وقت، بس هو مش جمبي، أتخلى عني في أكتر وقت أحتجته فيه زي ما بابا عمل بالظبط، هو خايف إن الدكتور يحطه في دماغه و خصوصا إن معاد الكشف الطبي بتاعه قرب ؟!

- يا راوية أنتي مش عارفة حاجة، يوسف دلوقتي هو إلى محتاجك، لازم تساعديه و تقفي جمبه.

وهنا تبدلت ملامح راوية من الغضب إلى القلق و الخوف

- ليه، ماله يوسف..؟، حصله حاجة؟ هو كويس؟

ازداد بكاءها و أنا أقص عليها كل ما حدث

- أنا السبب أحمد عمل فيه كدة بسببي، أنا السبب.

- يا راوية محدش فيكو السبب، هو إللى إنسان حقير، المهم دلوقتي نلحق يوسف.

- إزاي؟، قولي أي حاجة و أنا هعملها.

شرحتُ لها خطتي، لم يعد أمامنا سوى طريق واحد لنسلكه..

****

في المشفى، ذهبت والدة يوسف للقائه :

- إزاي يعني الزيارة ممنوعة، آخر مرة شفته كان كويس.

- يا مدام وفاء، هو حالياً واخد دوا و نايم، و النهاردة ميعاد الكشف و ممكن حضرتك بعدها تبقى تشوفيه.

وجدتها فرصة لإنقاذ يوسف، فركضت مسرعاً لراوية لكي تخبر والدة يوسف بما أصابه، وجدتها تعد حقيبتها برفقة والدتها، ظللتُ واقفا منتظرا خروجها، لكي أنفرد براوية، لكنها لم تخرج حتى بعد محاولات راوية التى فهمت أنني أردتُ أن أتحدث إليها فدخلت إلى حمام

غرفتها ثم تبعتها، و بعد أن أقنعت والدتها بالخروج من الغرفة، و الذي لم يكن سهلا على الإطلاق و جدنا والدة يوسف رحلت، و

ضاع أملي في مساعدة يوسف، كيف رحلت هكذ؟!، ألم تشعر بأن هناك خطأ ما؟!، ألم يخبرها قلبها بأن وليدها في خطر؟!

أنطلقنا للمنزل، لأول مرة بعد عدة سنوات تدخل راوية منزلها، لقد عاشت أكثر من نصف عمرها في المشفى، بين المرضى و

الأطباء، لا تعرف دفئا و لا حنانا، هي لم تشعر بهما إلا مع يوسف..و رفعت، و بعد ما فعله أحمد، أصبحت تخاف الرجال جميعا، لكن هل هما مثل باقي الرجال..؟

استقبلنا ساكن بيتي، و بعد كلمات التهنئة و الفرحة العارمة، و التى حاولت راوية تقليلها قدر المستطاع، جلسنا في غرفتها بمنزلهم بعد أن طلبت من والدتها أن ترتاح قليلا، بدأنا نخطط لفكرتنا.

اقترحتُ عليها أن نستعين بعُمر و أصدقائه، فلن نستطيع تنفيذ الأمر بمفردنا، وافقت و طلبت من والدتها أن يأتي عُمر فهي تريده في أمر هام.

تحدثت راوية

- عُمر أنا عايزة أطلب منك طلب.

- تحت أمرك يا أبلة راوية، أنت تؤمري.

- في حد يهمنى أمره في مشكلة خطيرة و محتاج مساعدتك، هترضى تساعده.

- طبعا يا أبلة راوية ، أى حد يهمك هحطه في عنيا الاتنين.

ابتسمت راوية وحمدت الله ثم أخذت في سرد تفاصيل الخطة .

بعد فترة كنتُ برفقة عُمر و أصدقائه أمام بوابة المشفى، عمل أحد الشباب على إلهاء رجل الأمن، و استطاع البقية في النهاية التسلل إلى الطابق الذي تقع فيه غرفة يوسف، سبقتهم إلى هناك، ففي كل الأحوال لن يراني أحد ، أردتُ أن أطمئن على ما يحدث و أحاول أن أخبر يوسف عن خطتنا، لكنى وجدته يفيق بصعوبة، و بدأ

يهذي بكلمات غير مفهومة، حاولتُ التحدث معه لكنه لم يفهم شئ، حاولتُ كثيرا إقناعه بأن يهرب معي لكنه أيضا لم يستجب.

و بينما أنا كذلك، وجدتُ الممرضات، والطبيب يستدعون يوسف للذهاب لهيئة الكشف.

- يوسف أبوس أيدك، متروحش معاهم، يوسف فوق بصلي.

هو لا يستجيب لندائي، بدأت الممرضات بحمله، وضعوه على سرير متحرك، في نفس اللحظة التي دخل فيه عُمر و الشباب.

صرخ طبيب

- أنتو مين، أطلبو الأمن بسرع.....

لم يكمل جملته فقد أسكته أحد الشباب بضربة على رأسه، في حين ألتزمت الممرضات الصمت.

بدأ يوسف في الصراخ و رفض الذهاب معنا.

- انتو مين، أنا مش جاي معاكو، عايزين تخطفوني، إلحقووووووووووووووووني.

بالطبع لم يسمع أحد حديثه سواي، لكنه بدأ في إصدار أصوات صراخ مكتومة أستمع إليها الجميع، فأسكته عُمر بضربه أخرى على رأسه، ترنح يوسف ثم أصدر بعض الهمهمات، و سقط على سريره، أخذنا نركض جميعاً، و هم يدفعون يوسف على سريره، حتى وصلنا للمصعد، عندما أوقفنا رجل أمن

قائلاً

- أنتو مين..؟؟

****

يكاد قلبي يقفز من صدري، يتصدى صوت دقاته في أذني، أشعر بأن الجميع يسمعها، كما أسمع دقات قلوب الجميع، سيكتشف أمرنا، سيعرف بما نفعله، و سيتحمل هؤلاء الصغار نتيجة أفكاري، ليتني لم أورطهم، ليتني فكرتُ بطريقة أخرى لتخليص

يوسف، كم أتمنى أن يروني، أو يسمعوني، ما الذي سيحدث؟، ما العمل؟!

و بعد صمت طويل ظننت من طوله أنني أنتقلتُ لزمن أخر، مرة أخرى، أجابه أحد أصدقاء يوسف بهدوء و بصوت واثق

- أحنا واخدينه عشان الكشف الطبي، أبعد متعطلناش، قبل ما اللجنة تمشي.

ما أذكاه!، لقد استطاع تخليصنا من الموقف، يجب أن يصدقه رجل الأمن و إلا ستكون العواقب وخيمة.

أرتاب الرجل في أمرهم، نظر لهم طويلا، ظننتُ بأنني سأموت من الخوف، علاَّ صوت صراخي، و لكن لم يسمعني أحد، حاولت الإمساك بيد رجل الأمن و لكن دون جدوى.

و هنا صرخ فيه الشاب

- يلا متعطلناش، عشان متتأذيش.

أبتعد الرجل بعد أن فكر قليلا، فيبدو أنه خاف من فقدان عمله، الذي لو فقده سيفقده لأنه تركهم يرحلون!

بعد فترة قصيرة مرت علينا بطول الدهر استطعنا مغادرة المشفى برفقة يوسف، و انطلقنا في طريق العودة للمنزل.

قابلتُ العجوز الذي يسكن بيتي يودع الجميع منطلقا للسفر، لكنه توقف لرؤيتهم هكذا،

- عُمر إيه إلي حصل، و مين إلي معاكو ده.. أنتو أتخانقتو معاه، و لا هو شارب حاجة .

ارتبك عُمر لدقائق، لكنه أخبر الجميع بأن يوسف صديقه المريض، فصعدنا جميعا لمنزل عُمر، ثم استدعى صديق له بكلية الطب، و بعد عدة محاولات استفاق يوسف بعد أن ضخ صديق عمر دواءا ما في أوردته.

استيقظ يوسف مفزوعا، بعد أن زال تأثير الأدوية من دمائه، لا يدري ما الذي حدث أو ما جاء به إلى هنا، طمأنته و أخبرته بكل ما حدث، وعندما استأذن الرجل في الرحيل لأن موعد قطار الاسكندرية سيفوته، فجأة تذكرتُ أمرا مهما، و لمعت في رأسي فكرة، فأنطلقتُ لراوية.

- راوية بصي الراجل الي ساكن في بيتي هيروح اسكندرية النهاردة، إيه رأيك يوسف يروح معاه على ما الأمور تهدى.

- فكرة كويسة ، بس هو هيوافق.

- أكيد، هو شكله راجل طيب، و أنا هقنع يوسف، أنتى بس نادي لعُمر بسرعة، عشان نخليه يقوله.

نادت راوية على ضحى.

- نعم يا أبلة راوية.

- ضحى يا حبيبتي، تعرفي تروحي عند طنط سعاد جارتنا، و تقولي لعُمر يجيلي.

- أنا...؟!!

- أيوة يا حبيبتي ، يلا بسرعة.. و قولي لجدو كمان ميسافرش دلوقتي.

- ليه...؟!

- يلا يا ضحى اسمعي الكلام، يا حبيبتي، عشان خاطري ضروري.

- بس.

- إيه تاني..؟

- لا مفيش..حاضر.

سارت ضحى على الدرج بأقدام مرتعشة..

طرقت الباب، و هي ترجف..

فتح عُمر الباب..

- ضحى..!

لا يدري لماذا شعر بتأنيب ضمير لما فعله معها من قبل، إنها فتاة رقيقة ، لا تستحق منه هذا، لكن هذة هي الرجولة، هو لم يفعل شيئا, لقد أخبرها أنه يحبها..

نظر في عينيها، هو حقا يحبها..

قالت ضحى في حدة

- هو جدو لسة هنا..؟

ظل شاردا في عينيها و لم يجبها..

صاحت بعصبية

- هنا و لا مشي..؟

- لا تحت.

- طب تعالى كلم أبلة راوية. ، قالتها و نزلت الدرج مسرعة لكي تخبر الجد بألا يسافر.

استجمع عُمر شجاعته و قال

- ضحى..!

إلتفتت إليه في خوف

- نعم..؟!

- أنا آسف.

شعرت ضحى بالدهشة من حديث عُمر، لكنها تداركت ذلك ثم أولته ظهرها، و إبتسامة كبيرة تلوح على شفتيها.

****

في منزلي، جلست مديحة مع الرجل وهو يحزم حقاءبه..

- أساعدك ف حاجة يا حج..؟

- شكرا يا مديحة، قوليلي راوية عاملة إيه دلوقتي..؟

- والله يا حج، تعبانة من ساعة الي ما يتسمى ده ما عمل عملته، وهي خايفة على طول.

صمتت قليلا ثم أردفت

- و طول الوقت بتفتكر أبوها و إللي حصل، و تعيط و تقولي الرجالة كلهم وحشين، كلهم زي بعض..و أنا مبقاش عارفة أقولها إيه.

- ربنا يشفيها، بس لازم تعرف أن مش كل الرجالة كدة.. هي عشان موضوع أبوها، فربطت الأمور ببعضها.

- أه يا حج، منه لله بقى هو السبب في كل ده.

صمتت مديحة قليلا و ترددت في الحديث و هي تقول

- بقولك يا حج..!

- خير يا بنتي..؟

- لو مش هيضايقك يعني، كنت عايزة أقولك حاجة قبل ما تسافر، محدش عارف هنتلاقى فين بعد كدة..عايزة أشيل الحمل ده من على قلبي و محدش ضامن عمره.

- قولي يا مديحة.

- كنت عايزة أحكيلك على ضحى.

- ضحى..!

- أه ضحى، مش عايزاك تسافر إلا أما تعرف الحقيقة ، مش عايزياك تظن فيا حاجه وحشه لا سمح الله.

- لا يا بنتي متقوليش كدة، أنا عمري ما ظنيت فيكي سوء أبدا، دا أنتي بنتي الي مخلفتهاش، أنا هسمعك بس مش عشان أنتي متهمة، أو مضطرة تفسريلي حاجة.

- ربنا يخليك يا حج، و الله أنت أحن عليا من أهلي.

لما سالم سابنا، أنا أضطريت أشتغل خدامة، اشتغلت عند واحدة ست كانت حامل، جوزها مات وهي في الشهر السابع، مكانش ليها حد، و لاهي و لا جوزها، هي كانت زوجة تانية، خلفت ضحى، و بعدها عرفت أن عندها سرطان، و هتموت، و هي كانت مقطوعة من شجرة و ملهاش أي حد، الست ملقتش قدامها حل غير أنها

تاخد بنتها و تروح لمراته الأولانية يمكن قلبها يحن عليها و توافق تربي البنت مع أخوها.

- وبعدين.. الست موفقتش..؟

ابتسمت مديحة بحزن،

- طبعا، أنا رحت معاها، و على إللي الست عملته فيها، ربنا يجازيها لو كانت عايشة و يغفرلها لو كانت ميتة، طردتنا و مرضيتش تسمعها حتى، خرجت ست عُلا من عندها بتعيط، و مش عارفة تعمل إيه، و لا تروح ببنتها فين، صعبت عليا قلتلها أنا ممكن أساعدك في تربيتها لحد م ربنا يقومك بالسلامة ، ما صدقت تلاقي حد ياخد باله من بنتها، ولما كانت في المستشفي في أخر أيام حياتها لقتها مسكت إيدي وحلفتني إني أخلي بالي على ضحى و وعدتها إن هحافظ على بنتها و أشيلها في عنيا.

طبعا أنا وافقت، و هي أدتني فلوس مصاريف للبنت، بربيها منها.. أخدتها و ربيتها زي بنتي و أكتر و حبتها و من يومها و هي بنتي و متعرفش الحكاية دي.

- طب حتى أخوها ميعرفش، محاولش يكلمكو، و لا يسأل على أخته..؟

- والله يا حج ماعرف، كل إللي أعرفه إنه كان تعبان في مستشفى.. و معرفش عنه حاجة.

- ربنا يجازيكي خير يا بنتي، إنك بتربي البنت اليتيمة دي، بس هي يعني لما دخلت المدرسة مسألتش عن اسمها، و لا اسم أبوها و أمها.

- ماهو يا حج هي أصلا متعرفش سالم أبو راوية و قلتلها أن أبوها ميت، و أن اسمه عبد السلام زي ماهو مكتوب ف شهادة ميلادها، و أن اسمي عُلا في البطاقة و مديحة ده اسم الناس بتندهلي بيه.

- طب خبيتي عليها ليه؟، ماهي مسيرها لما تكبر تعرف كل حاجة يا مديحة.

- مقدرتش أقولها و أكسر بخاطرها يا حج، و مين عالم الأيام إيه إلي هيحصل فيها..المهم أنها متعرفش حاجة دلوقتي.

لم تدري مديحة بأن ضحى بالفعل قد علمت كل شئ، و أنها هي من أخبرها بالأمر، فقد استمعت لحديثها كله..

****

صعدت ضحى لسطوح المنزل، جلست مصدومة، مشدوهة، تتذكر ما سمعته من مديحة، مديحة ليس والدتها، لقد توفيت والدتها، هي يتيمة، لديها أخ، أخوها لا يعرفها، مديحة كاذبة، ليس لديها أم، راوية ليست أختها.

جلست تبكي ، تأن، الدموع تغرق فستانها سماوي اللون فتحيله للأزرق، و تحيل بياض عينيها للأحمر..

- ضحى..! قالها عُمر

أقترب منها

- ضحى مالك، بتعيطي كدة ليه..؟

لم يتلقى إجابة، جلس أرضا أمامها

- قوليلي يا ضحى و النبي، حد عملك حاجة، أنا زعلتك ف حاجة.

مازالت تضع يديها على وجهها، و لا تتحدث..

- متعيطيش يا ضحى، عشان خاطري، أنزل أندهلك طنط مديحة..؟

صرخت قائلة

- لأ.

تفاجأ من رد فعلها،

- ليه..؟ هو أنتي زعلانة منها، هي زعقتلك..؟

أجابته

- لأ.

- طب مالك..؟، أنا عارف أنك زعلانة مني، أنا أسف والله، و مش هضايقك تاني، بس متعيطيش.

- ضحى لو مقولتيليش مالك، هنزل أنده لطنط مديحة.

ألتفتت له، دهشة منظر عينيها و وجهها،

- قوليلي مالك و مش هقول لحد.

أنفجرت في البكاء،

- ماما ماتت.

ظهرت أمارات الدهشة و الفزع على وجه عُمر و قال

- ماتت!، ماتت ازاي يعني..؟

نظر إليها مستفهما، فأكملت حديثها و قصت عليه ما سمعته..

****

" شط إسكندرية يا شط الهوى

رحنا إسكندرية رمانا الهوى

يا دنيا هنية و ليالي رضية

أحملها بعينيه شط إسكندرية

البحر و رياحو و الفلك الغريب

يحملها جراحو و يرحل في المغيب

يتمهل شوية و يتودع شوية

و تعانق المية شط إسكندرية

ليالي مشيتك يا شط الغرام

و إن أنا نسيتك ينساني المنام

و الشاهد عليه غنوة أمارية

و النسمة البحرية و شط إسكندرية "

في مدينة الحب، وطن العشاق، هنا التقيت فريدة، تلك الفريدة، حالة متفردة، لوحة مرسومة على جدار الحياة، حب وُلد في بحرها الكبير، شرب منه و أرتوى، و لا أدري حقا هل أرتوى هذا الكبير بنبتة حب صغيرة..؟، أم روى بمياهه المالحة تلك النبتة لتكبر و تترعرع..؟، تتشابك أغصانها في قلبي، و تظل أوراقها معلقة في ذاكرتي، و تبقى عيني ترويها بالدموع.

فريدةُ هي فريدة، و لم أكن لأملك شيئا يبهرها، لم أكن ذلك الذي يأسر العقول، في حين أنها أبدا لا تمر بعين إنسان إلا و تركت علامة كالوشم في قلبه.

أول لقاء لم يكن سوى مشاجرة، تلك التى فكرتُ كثيرا كيف يمكن أن أبدأ معها.

في نفس الوقت من كل عام، نأتي للأسكندرية، نستمتع بجوها، نغسل تعب الأيام الماضية في بحرها الكبير، و نحلق في لياليها الخلابة.

و في هذا العام تحديدا، و قد أسرتُ ألا أذهب مع عائلتي و قررتُ أن أذهب مع أصدقائي لقضاء العطلة الصيفية في مكان آخر.

تعنت أبي في الرفض، نشبت بيننا مشاجرة، و في النهاية أذعنتُ لرأيه.

سافرتُ على مضض، سافرتُ و أنا أنتوي أن أجعل تعاستي تنتقل إليهم، قررتُ أن استمر في ضيقي و انغلاقي، و كأنني أعاقبهم بصمتي، أعذبهم برفضي لجميع عروضهم المغرية.. حتى ألتقيتها و علمتُ أن أبي محقا.

علمتُ بأن القدر دوما يأتينا بأجمل الأشياء في أكثر وقت نرفضها بكل إصرار، و كأنها لعبة دوما ما تلعبها معنا الأقدار، و لا نلبس أن ننخدع.

رأيتها تحلق بين أخواتها، تداعب المياة بقدميها، و تملأ كفيها من ماء البحر، رأيتُ الشمس تركت كل الوجود و ألقت بأضوائها فقط على وجهها العذب، رأيتُ يديها تتحرك لتوقف تمدد الشمس في عينيها، وجدتها تغمض عينيها حياءا من مغازلة الشمس الصريحة، تلقي برأسها للخلف و تفتح يديها لتحتضن الهواء الذي تعمق في أحضانها بكل سرور.

إن الإنبهار أمام هذة الحالة لا يكفي، وجدتني أذوب كما تذوب حبة السكر في كوب ماء بكل اشتهاء.

ظللتُ أراقبها حتى أسدل اليل سدوله، و أنا مؤمن أن القمر لن يفوته هذا المشهد، و لم يخب ظني، فها هو لا يرى سواها، لا

يلقي بضوئه إلا لينير ظلا تتركه خلفها، شعرتُ أنه يستمد نوره من ضوء عينيها.

فكرتُ كثيرا كيف أقترب منها، أشعر بأنها مغناطيسا يجذب إليه الجمال، و لستُ أرى في نفسي شيئا منه على كل حالٍ.

يبدو أنها شعرت بحيرتي، يبدو أن القمر أخبرها بأنني أراقبها، جاءت، نظرت إليّ، فتحتُ فمي دهشةً و إعجابا، وجدتها تلقى أشلاء كلمات، و كأنها تتشاجر مع بقايا وعيي

- لماذا تنظر تجاهي طوال الوقت..؟

لم أجبها، فقط تأملتها بمزيد من الإفصاح، ظلت تلقي على مسامعي المزيد من الكلمات، همت بالرحيل، وجدتني استوقفها، أمسكتُ يديها، أفزعها رد فعلي، حاولت الهرب فأطبقتُ على يديها أكثر.

و سألتها فقط سؤال..

- تتزوجيني..؟

شعرتُ أن الجنون يستهويها، أخطأتُ حين أعتقدتُ بأنني لا استطيع إبهارها، فجنوني وحده كفيل بإبهارها هي عاشقة الجنون.

كم اشتاق إليها تُرى هل لازالت تعيش هنا..؟

****

أقتربنا من منزل "هالة" ـ أخت العجوز ـ استقبلته استقبالا حارا، أخذته بين أحضانها، شعرتُ تجاهها بحنان غريب، شعرتُ و كأنها أمي التى أفتقدها كثيرا، أردتُ أن أنال هذا الحضن الدافئ، كم أفتقد أمي، هل ماتزال على قيد الحياة في هذا العالم الغريب؟!، أما أنها فارقته وتركتنى وحيدا أبحث عن بقايا ماضٍ لم أعشه و مستقبل قفزت إليه دون سابق إنذار.

جلس الجميع و بعد الترحيب بالرجل و بيوسف، أقبلت فتاة في مقتبل العمر..

ـ إزيك يا خالو إتأخرت كدة ليه.

ـ معلش يا حبيبة خالو.، ثم أكمل و هو يقبل رأسها ألف ألف مبروك يا حبيبتي أخيرا شفتك عروسة.

ـ الله يبارك فيك يا خالو.

قالت هالة

ـ عايزة أقولك على حاجة.

ـ ماتقولي يا حبيبتي.

ـ الولاد جايين النهاردة.

فجأة تلون وجه الرجل و أمتقع ..

- و النبي ما تزعل نفسك، هما جايين عشان فرح هند، حاول بقى تتصافى معاهم.

- دول حتى مكلفوش خاطرهم يقولولي.

تكلمت هند

- خلاص يا خالو متحبكهاش، هما أكيد حابين يعملولك مفاجأة، عايزيين الأيام كلها تبقى سعيدة و أكيد هتتصالحو.

- ربنا يقدم إلي فيه الخير يا بنتي..هما قالو هيجو إمتى..؟

أجابته هالة:

- طيارتهم هتوصل النهاردة بالليل، قلتلهم يجو يقعدو معانا هنا، بس مرضيوش و قالو هينزلو في أوتيل.

- كلهم جايين..؟

- أه دانا مأكدة على محمد هيجي هو و مراته و العيال و كمان خالد.. و خالد بقى ليه موضوع كدة و كان عايزني أفاتحك فيه على ما يجي.

- يعني أخيرا حنو عليا، و هشوف أحفادي، تصدقي يا هالة إني حتى معرفش شكلهم، دول يمكن ميعرفوش إن ليهم جد،

وموضوع إيه إلي خالد عايزه و مقاليش ليه؟ للدرجة دي مش معتبرني موجود.

- لا طبعا يا حبيبي و إلا مكانش قالي أقولك، هو بس مستني أما يجي عشان يقولك.

- و إيه بقى الموضوع إللي هيخليه يتنازل و يكلمني.

- عايز يتجوز.

- يتجوز! يتجوز مين..؟

- واحدة بيقول بتشتغل معاه في دبي، بيقول بنت أدب و أخلاق، و بيحبها و شاريها.

- شكله مظبط كل حاجة عايزني في إيه بقى، أنا لا حيلتي فلوس، و لا ليه رأي.

- إزاي يا خالو، هو ينفع حد يتجوز من غير موافقة باباه ، دا ميبقاش جواز، هو بيحبها و مرضاش يعمل أي حاجة من غير رأيك.

- شفت، الواد بالرغم من أنه بيحبها، و بالرغم من أنها معاه في نفس البلد و أنه معاه فلوس و مش محتاج، مرضاش يتصرف من غيرك، عشان هو ابن أصول.

- خلاص يا هالة مفيش داعي للتلميحات دي، ربنا يقدمله إلي فيه الخير، و إللي هو عايزه هيكون ربنا يسعده.

****

في منزل هالة، جلستُ مع يوسف في إحدى الغرف، الذي قال

- أنا قررت لما أرجع القاهرة ، أروح المستشفى و أطلب كشف طبي و أثبت أن حالتي أتحسنت و يكتبولي خروج.

- إن شاء الله، هو ده الصح ما أنت مش هتفضل هربان على طول.

- أنا حاسس إني مضايق قوي، عايز أشوف راوية، و حاسس بالغربة هنا.

- معلش يا يوسف هانت.. صحيح هو أنت ليه دخلت المستشفى أصلا؟

تنهد يوسف

- ياه يا رفعت، دي حكاية.

- خلاص لو هضايقك بلاش.

- لا أنا هحكيلك، أحنا أصحاب، و أنا مش هلاقي حد غيرك أحكيله و أئتمنه على أسراري.

ثم أكمل متهكما

- و بعدين أنت كدة كدة مش هتحكي لحد، زي مانا عمري ماحكيت لحد.

أنا أصلا مولود معاق لأن والدي و والدتي كانو قرايب، اتجوزوا عشان عيلتهم عايزة كدة، و مكنوش متفاهمين و بيتخانقوا على طول، و ده خلاني أتجه للمخدرات.

- مخدرات!!

أكمل يوسف في خجل

- كنت حاسس أني وحيد، و معاق، و ناقص، و مليش حد يحبني، و أبويا كان غني، و أصدقاء السوء استغلوا كل ده و علموني المخدرات، لحد ما أهلي أكتشفوا، و ودوني أتعالج، و بعدين دخلت المستشفى عشان التأهيل النفسي ، مبدأتش اتحسن غير من بعد ما شفت راوية، و حبتها، أدمنتها هي و نسيت أي حاجة تانية، و اتحسنت..

لكن كل ما يجي ميعاد خروجي، مقدرش أبعد عنها، كنت بتفق مع ممرضة بديلها فلوس و بتجبلي أدوية عشان يبان أني تعبان قدام لجنة الدكاترة.

- كل ده عشان راوية؟!

- أنا حالتى متحسنتش إلا لما شفتها في المستشفي، حياتي كلها اتغيرت بعدها، مقدرش يعدي يوم من غير ما أشوفها، نفسي بقي نرجع القاهرة، و أروح أطلب إيديها من أهلها، تفتكر.. تفتكر يا رفعت، ممكن يرضوا يجوزوها لواحد مش بيسمع زي ..؟!

****

جلس الجميع في تبادل أحاديث عائلية دافئة, شعرتُ بأنني أفتقد عائلتي أكثر و أكثر، وددتُ لو أدفع عمري كله من أجل أن آراهم الآن و أجالسهم ولو للحظة واحدة.

خلد الجميع للنوم و بالطبع شاركتُ يوسف الغرفة، أخبرته بقصتي مع فريدة و كيف ألتقيتها، حدثته عن أملي في لقائها هنا في الأسكندرية

مسقط رأس حبنا، حدثني عن رغبته في أن يخطب راوية و خوفه من رفض أهلها.

في المساء، اتصل محمد ليخبرهم بموعد العودة، و بعد فترة سمعنا طرقات الباب، وجاء الوفد المنتظر، بعد السلام و الترحيب، جلس الجميع يتبادلون الإبتسامات الزائفة، و يتصنعون السعادة، شعرتُ بجفاء من الأولاد تجاه الرجل، و رأيت في عينيه نظرة إنكسار.

حاول الرجل التقرب من أحفاده لكن دون جدوى، يبدو أنهم تعلموا جيدا فن تجاهله.

في المساء و كان كل شئ رائع، و انتهى الفرح بسلام، أتفق الجميع على البقاء في الأسكندرية حتى يذهب خالد و والده لطلب يد حبيبته التى تقطن بالأسكندرية أيضا.

وجدتها فرصة رائعة للبحث عن فريدة، خرجت و يوسف بعد أن أقنعهم بأنه سيتولى أمر نفسه، و لا يحتاج لصحبة أحد، وظللنا حتى أقبل المساء ندور في الشوارع، أبحث عن أملى في رؤية فريدة حبي الوحيد، أملي في استرداد حياتي، و ذكرياتي، و عمري الذي سُلب مني، درنا في كل مكان ولكن دون جدوى، جلستُ أمام البحر، أبكي و أدعو الله أن أرى فريدة و ألتقي عائلتي في أقرب وقت.

****

لا أدري ما الذي يدفعني لأن أعيش حياة هذا الرجل، أتتبع خطواته و أنغمس في يومياته و أتورط في مشاكله!

فبعد عدة أيام جلستُ برفقة العجوز و ولديه و شقيقته في منزل الفتاة لطلب يدها، استقبلنا أخو الفتاة، شعرتُ بأنني أشتم فيه رائحة أعرفها.

و بعد الجلوس أقبلت والدتها، وهنا توقف كل شئ حولي، بالرغم من مرور كل تلك السنوات، بالرغم من تقدمها في السن، بالرغم من مسحة الحزن التى تكسوها، و البياض الذي يغزو خصلة تسللت من أسفل حجابها، بالرغم من تلك التجاعيد التى تهاجم وجهها، إلا أنها كما هي جميلة، واثقة، شامخة، و أيضا فريدة.

عرفتها بالرغم من مرور أربعين عاما قد تبدل البشر، و تغير الوجوه، قد تعيد بناء أمم و تهدم أخرى، تواري أجيالا و تأتي بآخرين.

طلت علينا و كأنها هي العروس، بدأ الجميع في الترحيب و كلمات المجاملة، إلا شخصان أصابهما الوجوم، شُلت ألسنتهم، و تعلقت أعينهم.

نطقت فريدة بعد أن صمتت فترة أشعرت من حولها أن هناك خطب ما.

- رفعت..!

لقد رأتني، لقد رأتني.. وجدتني أهتف فرحا بالطبع ستتعرف إليّ حبيبتي حتى لو لم يفعل في الدنيا أحد فهي فريدة، التى ظلت محفورة في قلبي، حتى بعدما أخترقته الرصاصة، هي فريدة التى ظلت في عقلي و تفكيري، حتى بعدما أنطلقت في الزمن و تقدمتُ

أربعين سنة..إنها تراني، تُرى ما رد فعلها، كيف يبدو مظهري في نظرها، أريد مرآة، أريد أن استعد لرؤيتها، فريدة حبيبتي أخيرا..

خاب ظني حين تحدث هذا الرجل

- **فريدة..!**

دارت الأرض من حولي و دق بي ناقوس عدم التصديق، كيف لم أفهم كل تلك المدة أنه أنا..؟ هذا الرجل ليس سوى أنا.. لقد كنت أسكن مع نفسي، استمع لحديثي، أبكي على بكائي و أرثي حالي، يا لها من واقعة..!

بحثتُ عن حبيبتي، و في النهاية وجدتها.. أردت أن ألتقي بعائلتي و أنا بالفعل معهم، إذن هالة ليست مجرد سيدة تشابه اسمها مع اسم أختي إنها بالفعل أختي..!

ما لا أفهمه حقا لماذا تركتُ فريدة..؟، ما الذي جرى ليجعل لقاءنا بعد أربعين سنة هكذا..؟، لماذا لا أذهب برفقتها لنخطب لأبني..؟، إنني عوضا عن ذلك أطرق باباها لأخطب ابنتها لأبني، تلك التى يجب أن تكون أخته..!

كيف حدث كل هذا..؟ أريد أن أحدثني.. أن أفهم.

مدت فريدة يدها تسلم على رفعت - أنا- رفع يده ببطئ و كأن الشلل أصابها، تلامست يداهما، يا إلهي إنني أشعر بلمستها، أشعر بكفها بين يديا كيف يحدث هذا..؟!

أشتاق لهذة اللمسة كثيرا، يبدو أنني مشتاق مثلي فقد أطبقت على يديها... و سط تلك الدهشة العارمة من الجميع، وقف الحبيبان يكسوهما الصمت، و تفضحهما الأعين.

وألقَتْ يديهَا بيَدي فأَحْسسْتُ أنَّ اليدَينِ تتعَانقانِ ولا تتصَافحَانِ ، وترَكْناهَمَا نائمتَينِ إحْداهُمَا علَي الأُخْرى، وسكتْنا هنيْهَة وقد خُيِّلَ إليْنا أنَّنا إذا تكلَّمَنَا استيقَظَتْ يدانَا!

مصطفى صادق الرافعي

نطق أحد ما أخيرا إنها ابنتها، ياه كم تشبه أمها، هي فريدة مثلها تماما، لم تأخذ فقط شكلها، صوتها، رقتها، جمالها، لقد أعطتها أيضا اسمها و تفردها، هي أيضا فريدة، يبدو أن ابني مقدر له أن يعشق فريدة أخرى كما فعل أبوه تماما.

نطقت تلك الفريدة

- إيه ده يا ماما هو أنتو تعرفو بعض..؟

ظهرت علامات القلق على هالة و ازداد إرتباكها، بعد أن علمت كنه هذة المرأة.

أما محمد و خالد فدهشة ممزوجة بالغضب تكسو ملامحهما، و إزداد خالد حزنا و رغبة في إنكار ما فهم..

التوتر سيد الموقف.

****

قالت الأم وهي تحاول مدارة تورد وجنتيها، و صوت دقات قلبها الذي اسمعه من بُعد

- دا.. دا الأستاذ رفعت.

جلس الجميع، و بدت نظرات الإستفهام على وجه الولدين.. و يبدو أن رفعت فقد القدرة على فعل أي شئ، فحاولت هالة إنقاذ الموقف، و قالت

- ماشاء الله، فريدة زي ما حكيت عليها بالظبط يا خالد.

إنتبه الجميع لسماع اسم فريدة، و أولهم رفعت، الذي رفع بصره ثانية تجاه فريدة الأم.

ظلت عيناهما متعلقة، وجه فريدة متوهج، رفعت يتصبب عرقا.

و بعد وقت ليس بالقصير بدأ الجميع يتظاهر بأن شيئا لم يكن.. لكن لم يتطرق أحدهم للحديث الذي جاءوا من أجله، ظللتُ أنظر لرفعت، ألن تقول شيئا، يجب ألا يكسر قلب ابنه، يجب أن يتحدث، يجب ألا يحرمه حبيبته.. لكنه بالفعل قد قام بكل ما أردتُه ألا يفعله فقد استأذن و أنصرف الجميع دون فتح موضوع الخطبة، لماذا لا يستمع إلى نصائحي ألسنا واحد..؟

في منزل هالة، الجميع مشتعل، ألقى محمد اللوم على خالد

- ملقتش غير الست دي و عايز تتجوز بنتها.

- أنا..أنا مكنتش أعرف. قالها ثم جلس على المقعد بأسى و وضع رأسه في يديه.

تحدثت هالة

- كان المفروض تتكلم يا رفعت، أنا فضلت ألمح للموضوع، و أنت و لا هنا، أحرجت الناس، يقولو علينا إيه دلوقتي، رايحيين نطلب إيد البنت ، و بعدين نمشي كدة؟!

لم يتحدث رفعت، قام خالد ودخل الغرفة و أغلق الباب.

فقال محمد

- نطلب إيدها إيه و بتاع إيه، البنت دي متنفعناش، أنتي عايزة يتجوز بنت الست دي يا عمتي.

- مش أنت إلي هتقرر يا محمد، أخوك أدرى بمصلحته و لو بيحبها محدش هيقدر يمنعه، و لا إيه يا رفعت..؟

أيضا لم يتحدث رفعت..

سيطر الحزن على تلك الليلة، و جفا النوم الجميع، ظللتُ طوال الليل أفكر، لقد تزوجتُ من امرأة أخرى و أنجبتُ طفلين، لا إنهما رجلان، لا أصدق.. و لا أدري ما الذي حدث ليكون هذا الجفاء بيني و بين أولادي، كذلك ما الذي يدفعني لترك فريدة و التزوج من امرأة أخرى..؟

حاولت طرد هذة الأفكار و محاولة إيجاد طريقة ما لمساعدتهم، لمساعدة نفسي، مساعدة أبنائي، و كذلك فريدة.

في الصباح، رأيتُ نفس الوجوه، الحزن و الوجوم ، و الصمت.. الصمت سيد الموقف.

طرق رفعت باب غرفة خالد عدة طرقات..

- خالد، أنا عارف أنك مش نايم ، ممكن نتكلم شوية لو سمحت.

لم يتلق إجابه، فأكمل

- يا بني كل حاجة تتحل، بس خلينا نتكلم و إللي أنت عايزة هيكون.

فجأة أرتفع صوت خالد

- نتكلم في إيه..؟، معدش في كلام يتقال، كفاية لحد كدة.

- يا بني أنت بتحاسبني أنت وأخوك من زمان على إيه..؟، على إني حبيت، ما أنت كمان حبيت، على أني حبيت فريدة، ما أنت كمان حبيت بنتها فريدة.

نظر له خالد شزرا ،

- إحنا مش بنحاسبك إنك حبيت، كل واحد يحب زي ما هو عايز، لكن محدش ضربك على إيدك عشان تتجوز أمي، و تعذبها معاك كدة، أتجوزتها ليه مادام بتحب فريدة.

- يا بني أنت مش هتفهمني، محدش هيفهمني.. بلاش كلام في الماضي.. خلينا نشوف إلي جاي، أنت فعلا بتحب فريدة و عايز تتجوزها..الإختيار إلي هتختاره هو إلي هيكون.

قالها و هو يضع يده على صدره و كتفه الأيسر، و علامات الألم ترتسم على وجهه.

- هو أنت خلتلي إختيار، أنت السبب في كل حاجة، أنت دلوقتي بتقولي أختار، أختار بين إيه، بين حب عمري و بين أمي، أمي إلي قتلتها أنت و فريدة.

أنهى خالد كلماته ليجد والده ملقى أرضا فاقد الوعى..

****

في المشفى، رفعت في غرفة العمليات، و الجميع في الخارج، خالد يبكي، محمد مصدوم، و هالة تدعو الله.. و أنا معه في غرفة العمليات، أشعر بكل ما يشعر به، أشاركه الألم، أبكي على حالي، شريط من الذكريات يمر أمامي منذ لقائي بهذا الرجل، كيف لم أدرك منذ اللحظة الأولى بأنه أنا..؟

هل أختلفت لهذة الدرجة..؟ هل بعدتُ عن نفسي..؟ فقدتُ ماهيتي لدرجة أنني لم أعرفني..؟ لم يكن الشكل عائقا فأنا مازلتُ أشبهني، لكن الزمن ترك عليا صبغته، تغيرتُ من داخلي فجهلتُ من أكون، كيف ما عرفتُني و أكتشفتني تلك الحبيبة...؟ لقد عدتُ لذاتي وقت ألتقيتها.. شعرتُ بنفس ما

شعرته يوم رأيتها أول مرة، فتوحدتُ مع نفسي مرة أخرى تلك التى فارقتها منذ زمن.

رأيتُ الأطباء يهرعون، يحاولون، يتجادلون، ييأسون، أسمع أنين هذا الجهاز العجيب ، يبدأ في الخفوت، استشعر بأنه يعلن وفاتي، لا أدري ما الذي دفعني لأفعل هذا، أشعر بأنها ذات القوة الخفية التى أتت بي هنا، هاهي تجذبني من جديد، أترك نفسي و استجيب لما يحدث.

وجدتني أصعد على سريره، أضع جسدي فوق جسده و أسكنه، نتحول لذات الشخص في تلك اللحظة التى تنطلق فيها صافرة من هذا الجهاز تعلن خبر وفاتي، أعلن طبيب ما ساعة الوفاة الثانية ظهرا فيعلو أنين الجهاز من جديد، تنبأ دقات قلبي عودتي للحياة، أندهش الأطباء، هم من لم يهتموا برهبة الموت، أعلن الطبيب ساعة الوفاة بلا مبالة، ها هو يعلن نبأ عودتي للحياة بدهشة أكبر، و رعب حقيقي، إنهم أمام معجزة لستُ أدري من صنعها، أو كيف حدثت لي. نقلوني على سرير متحرك إلى غرفة أخرى، وجدتُ الجميع حولي، أولادي يبكون يقبل كل منهما يدي، و هالة أختي ها أنا أنعم بحضنها الذي حسدتُني عليه من قبل.

جاءت فريدة لزيارتي، كم أشتاق إليها، إنها معي بعد كل تلك السنوات، تجلس أمامي، تراني كما أنا بعد أربعين عاما، تشعر بي, تسمع صوتي،تتحدث إليَّ، تغازل أذني برقة كلماتها، و تطرب قلبي كلما نطقت اسمي، ليتني أموت الآن قبل أن نفترق مرة أخرى.

- حمدا لله على سلامتك يا رفعت.

- الله يسلمك يا فريدة.

صمتت و هي تنظر للأرض، بالرغم من مرور كل تلك السنوات لا زالت تخجل من النظر في عيني.

- هتفضلي باصة في الأرض كدة كتير..؟

لم أتلقى جوابا.. رفعت رأسها لأجدها تبكي، مسحتُ دموعها، تلك الدموع التى تمر على وجنتيها فتحرق قلبي، و تلهب نيرانه، تجعله ينزف دما، آخر ما يمكنني رؤيته الآن هو دموعها، لا أحتمل

رؤيتها، و لا أطيق صبرا لكي أخبرها بحقيقة الأمر و بما حدث معي، لكن هل ستصدقني؟؟

قالت من بين دموعها

- أنا استنيتك كتير، كتير قوي يا رفعت.. أنا قولت لبابا أني مش هتجوز غيرك، و هو في الأول مكانش موافق بس بعد كدة أقتنع، دورت عليك كتير عشان أقولك، رُحتلك البيت، قابلتني أختك و قالتلي أنك أتجوزت.

صمتت، تبكي، يعلو صوت شهقاتها,

- أنا اضطريت أتجوز واحد تاني مبحبوش، خفت أفضل لوحدي بعد ما بابا تعب، خفت يموت و يسبني زي ما أنت سبتني، وافقت عليه بس خوف من الوحدة.

توقفت قليلا، مسحت دموعها ثم أكملت

- كان بيحبني قوي، بيخاف عليا من الهوا الطاير، لما بابا الله يرحمه مات، بقى بيعاملني زي ما أكون بنته، تعرف أنا كان حزني أضعاف، حزني إنك سبتني و اتجوزت..

حزني أن بابا مات و سابني، حزني أنه بيعاملني كدة و بيحبني كدة و أنا لسه بحبك، مفيش يوم عدى عليا إلا و أنت معايا، مفيش لحظة مرت إلا و أنا بفتكرك، كنت ساعات بحس أنه عارف كل حاجة، صورك إلى كنت مخبياها أنا متأكدة إنه شافها بس

متكلمش، تعرف ضميري كان بيعمل فيا إيه، أنا كنت بموت كل ثانية، حتى لما جبنا بنت أصر يسميها فريدة.

ازداد نحيبها

- و بردو مات وسابني، إللي خفت منه في النهاية حصل، بس المرة دي بقيت لوحدي، و معايا بنت المفروض أربيها، و أكبرها، هي إلي خلتني أعيش.

لم أملك إلا أن أضمها إلى صدري، ضممتها و ألصقتها بصدري، أردتُ أن أدخلها داخله، بكت بين ضلوعي حتى هدأت تماما..

لم أستطع النطق سوى بكلمة واحدة

- بحبك..!

.....

عدتُ لحياتي مرة أخرى، لكنني رجل آخر تماما ، عدتُ بروح الشباب التى أنا عليها الآن ، لم أخذ من نفسي سوى الشكل.

عرفتُ من هالة أن والدي رفض زواجي من فريدة لأنني ذهبتُ دون علمه لطلب يدها، أخبرتني بأنه قال "دول ناس ميعرفوش الأصول، مش ممكن أجوزهالك"

ضربتُ بكلامه عرض الحائط، قاطعتُ العائلة، رفضتُ حتى زيارة والدي وقت مرضه، توفيت أمي و أنا بعيد عنها، لم أحضر جنازتها و كذلك أبي مات و هو غاضب عليّ.

لم يوافق والد فريدة على زواجنا عندما ذهبتُ للمرة الثانية لأنني لا أمتلك المال و لأنني ابن عاق، فتركتُ البلدة و سافرتُ إلى دبي حيث تزوجتُ نبيلة ، صارحتها في ليلة زفافنا بأنني أحب امرأة أخرى، أي جرح سببته لها؟

كيف طاوعني قلبي؟، ذلك الذي يدعى الحب، كيف يجرح المرأة التى تحبه بهذة الطريقة..؟، كيف يقتل فرحتها بليلة زفافها..؟، كيف يدمر ليلة عمرها..؟! كيف استطعت أن أؤلمها لهذة الدرجة..؟، هي التى صبرت، تنازلت، أنجبنا محمد و حملت بخالد، ظنت بأن وجودهما كفيل بجعلي أحبها و أنسى فريدة، ظنت بأن أبناءنا سيجعلون مني ذلك الرجل الذي لم أكنه يوما، لكن لم يحدث.

ففي إحدى الزيارات إلى القاهرة، و التى أعتدنا أن نقوم بها لزيارة هالة أختي، و التى كانت تشاركني فيها نبيلة بالرغم من وجود أهلها بدبي، و قد أصرت أن تأتي معي في هذة المرة بالرغم من حملها بخالد، و اقتراب موعد ولادتها، ربما خشيت أن ألتقي

فريدة، و أجدد الوصل، خشيت أن أراها، فأنسى أسرتي الصغيرة؟، ربما خافت - و هي التي تعلم جيدا مدى حقارتي عندما يتعلق الأمر بفريدة- ألا أعود إليها مطلقا..

وحدث ما خشيته بالرغم من وجودها بقربي، بالرغم من كل ما عانته لكي تأتي معي، و كل ما بذلته كي لا أرى فريدة..!

عاندها القدر، و غلب كل مخططاتها، و أفشل كل محاولاتها، لقد حقق كل مخاوفها.

فقد لاحت أمامي فريدتي، تلك الحبيبة التى أنستني كل شئ حتى نفسي، تركت نبيلة خلفي و ذهبت إليها، في تلك اللحظة التى قرر خالد بالمجيئ، تركتها في السيارة في شهرها التاسع على أعتاب الولادة

حتى ألحق بحبي الضائع، أتاها المخاض وحيدة، لم تستطع أن تستنجد بأحد، لم تتمكن أن تستغيث.

و في المشفى بعد عدة محاولات تم إنقاذ الجنين، و التضحية بالأم، و السبب هو تأخر وصولها للمشفى.

أخذ والد نبيلة أولادي، و له كل الحق فيما أخبرهم عني، أخبرهم بأنني قتلت أمهم بسبب تلك التى تدعى فريدة.

ها أنا اليوم أقف أمام أبنائي، لم يتخلوا عني كما فعلتُ مع والدي، لم يتركوني في مرضي، لم أمت و هم بعيدون.

طلبتُ الصفح، إعترفتُ بخطئي و إثمي الكبير، طلبتُ إصدار الحكم، طالبتُ بفرصة للتكفير عن ذنبي.

صادمٌ هو الموت، حالة فريدة حقا، ربما هو الشئ الوحيد الذي يجعلنا قادرين على الصفح، لقد فرقنا الموت منذ زمن، و اليوم يجمعنا من جديد.

سامحني أولادي، و عاودنا الجلوس في بيت فريدة، لقد طلبتُ يد فريدة مرتين، و كذلك فعل ابني.

إنهما حقا فريدتان..

****

في إحدى قاعات القاهرة، تمت مراسم الزواج، و رأيتُ ابني يتزوج، لا أدري لماذا أفكر في رفعت الحقيقي، مهلا ألستُ رفعت..؟! ، تمنيتُ أن يحضر فرح ولده، أن يحظى بصفح أولاده و غفرانهم، لكنني قلتُ ربما يرانا الآن مثلما فعلتُ من قبل، ربما هو سعيد الآن بمراقبتنا و الإستماع إلينا.

حضر الجميع، مديحة، ضحى، راوية ، يوسف الذي ثبت أخيرا أنه لا يعاني من أي أمراض تستدعي بقاءه في المشفى ، عُمر و

أصدقاؤه، هذة العائلة - عائلتي الصغيرة- فرحنا جميعا بهذا اليوم، سافر العروسان، و كذلك محمد لأعمال مهمة.

جلستُ مع راوية..

- إزيك يا راوية.

- الحمد لله يا جدو إزي حضرتك..؟

- ما بلاش جدو دي، قوليلي رفعت.. رفعت أبو المعاطي.

تعجبت من حديثي،

فقلت

- أيوة بالظبط كدة، أنا رفعت.

- ازاي يعني..؟

قصصتُ عليها ما حدث في المشفى..

قالت بصوت مختنق و الدموع تترقرق في عينيها

- يعني أنا كدة مش هشوف تاني.

- مش لازم تشوفي بعنيكي يا راوية، إنتي لما حبيتي يوسف شفتيه..؟

صمتت فأكملتُ

- أنتي حبتيه بقلبك، ممكن تشوفي حياتك كلها بقلبك.

- أنا معدتش عارفة أشوف حاجة، حاسة أني ضايعة، الرجالة كلهم زي بعض، صحيح أنا بحب يوسف، بس أنا أضمن منين أنه ميكونش زي بابا، أضمن منين أنه ميكونش زي أحمد.

- لا يا راوية، مش عشان مريتي بتجربة سيئة يبقى كل الرجالة كدة، أنا أعرف يوسف كويس، هو أكتر واحد هيخاف عليكي و يحميكي.

- أنا إلي تعابني إني حاسة إني بحبه، أنه واحشني و مش شايفة حياتي من غيره، اتعودت إنه لازم يكون موجود.

- محدش بيتعلم غير لما بيجرب، و يوسف إنسان كويس، أنا جيت عشان أقولك إنه عايز يتجوزك، هو بيحبك، طول الوقت بيفكر فيكي، و خايف عليكي.

ابتسمت، و رأيت السعادة تطل من عينيها و أطرقت رأسها خجلا حين سألتها عن رأيها في الزواج من يوسف، وافقت بالرغم من الخوف الذي يتملكها.

****

بعد عدة أيام، طرق يوسف و والدته باب منزل راوية، لطلب يدها، بعد أن بذل يوسف مجهودا لكي توافق والدته على هذه الخطبة، فكل أم تتمنى لولدها أفضل عروس، عروس لا ينقصها

شئ، حتى لو كان ولدها يعاني من أي نقص، فهو في النهاية ابنها و سيظل كاملا في نظرها.

فتحت ضحى الباب، قالت والدة يوسف

- إزيك يا كتكوتة، ماما موجودة..؟

- أيوة يا طنط أتفضلو.

دخل يوسف، وقف ينظر إلى ضحى كثيرا، و كذلك فعلت هي، قالت والدته بلغة الإشارة

- إيه يا يوسف، أدخل.

دخل الجميع و خرجت مديحة لإستقبالهم، وقفت كل من السيدتين تتأمل الأخرى، و كأنها تتذكر أين رأتها من قبل.

قالت مديحة بدهشة

- مدام وفاء..؟!

سألت وفاء

- إحنا إتقابلنا قبل كدة, صح؟

إرتبكت مديحة، كيف تخبرها...؟، ما كان يجب أن تبدي معرفتها بها، لكن وفاء لم تمهلها لتفكر فقالت

- أنتي الخدامة إلي جتيلي مع عُلا..!

نظرت ضحى ليوسف، هل هو أخوها..؟، هل هذة السيدة هي زوجة أبيها، التى رفضت أن تمنحها حقها في التواجد مع أخيها..؟ نزلت دموع مديحة، و بدأت وفاء بالحديث

- يلا يا يوسف نمشي من هنا، دول ناس بيئة، واحدة عامية و أمها شغالة عند واحدة كدابة، بتتبلى على أبوك.

تحدثت راوية

- يعني يوسف أخو ضحى..؟

قالت وفاء

- أخوها إيه، أنتي شكلك هبلة زي أمك.

- لو سمحتى يا طنط، أمي مش هبلة، و مسمحلكيش تقولي كدة.

قالت وفاء و هي تترجم ما تقوله بلغة الإشارة

- شايف كمان بيغلطو ف أمك، دول ناس كدابين و ناقصين تربية.. و معندهمش أخلاق.

قالت مديحة

- لو سمحتي يا مدام وفاء، مفيش داعي للكلام ده، و التجريح بالشكل ده.

- تجريح إيه، أنتو تعرفو تجريح، و لا عندكو إحساس، أنتو ناس كدابين، عايزين تاخدو فلوس الراجل الغلبان، هو و ابنه، و جايبين بنت من الشارع و تقولو عليها أخته.

قالت راوية

- لو سمحتي يا مدام كفاية لحد كدة.

أكملت وفاء

- و مش بعيد كمان تكوني كل ده بتمثلي على ابني، و عارفة هو مين من الأول، و رسمتي عليه الحب و الغرام، عشان تستدرجوه لحد هنا، و أنا من طيبتي وافقت إنه يتجوز واحدة عامية، مع أن ميت واحدة تتمناه، هو إحنا ناقصين قرف.

هنا صاحت راوية و قد شعرت بالإهانة:

- إتفضلي برة لو سمحتي، أنا أصلا ميشرفنيش إني أتجوز ابنك.

قالتها و هي تنظر في وجه يوسف، و تتحدث ببطئ لكي يفهم ما تقوله.

تعجب يوسف مما يدور حوله، و مما قالته راوية في جملتها الأخيرة، و خاصة أنه لم يستطع تمييز كلامهم جيدا.

تحدثت وفاء بلغة الإشارة موجهة حديثها ليوسف ثم أنصرفا.

جلست راوية تبكي ، و بدأت ضحى تتسائل من بين دموعها

- هو ده أخويا يا ما.... لم تكمل جملتها

أخذتها مديحة بين أحضانها و قالت و هي تبكي

- ماما يا ضحى كمليها و هفضل طول عمري ماما.

أخذت مديحة تقص كل ما حدث من يوم رأت عُلا، و كيف أخذت ضحى، و أن وفاء هي زوجة أبيها الأولى، و يوسف هو أخوها.

****

جلست في منزل راوية، لأعرف ما حدث بعد زيارة يوسف و والدته، لم استطع الإنفراد براوية لكي أسألها.

فقد أخذت مديحة تبكي و هي تتحدث:

- ضحى سمعتنا و أحنا بنتكلم و عرفت كل حاجة يا حج.

بالطبع لم أفهم عما تتحدث، و قد فهمت راوية فتحدثت قائلة

- ضحى عرفت أن ماما مش مامتها و أنها أخت يوسف، و أن مامتها و باباها ماتو.

دُهشت كثيرا من حديثها،

- يوسف أخو ضحى!، إزاي..؟، طب ضحى فين دلوقتي..؟

أجابتني راوية

- في المدرسة.

- خلاص يا طنط... توقفت عن الحديث بعد أن أدركت أنني الجد حاليا،

- خلاص يا مديحة.. أنا هتكلم معاها، متزعليش نفسك، لما ترجع من المدرسة خليها تعدي عليا.

و أخيرا.. إنفردتُ براوية لأفهم ما يحدث، شرحت لي الأمر بالتفصيل... حتى زيارة وفاء و ما فعلته، و رحيل يوسف معها و عدم إتصاله بها منذ ذلك الحين.

- غريبة قوي، هو حكالي عن مامته و باباه، بس مجابليش سيرة ضحى خالص.

- هو كان ف المستشفى وقتها، و غالبا ميعرفش حاجة عن الموضوع.

- طب جربي إتصلي بيه.

- أحنا مش بنتصل ببعض، أنا كنت بخلي ضحى تكتبلي رسالة و ببعتهاله، و هو بيرد برسالة.

- طب هاتي أنا هكتبلك.

أخذتُ الهاتف:

- أنا أول مرة أمسك البتاع ده فهميني أعمل إيه.

أرسلنا له " يوسف أنت فين..؟ أحنا لازم نتكلم.."

و بعد قليل تلقينا رسالة قرأتها لراوية

" لو سمحتي يا راوية سبيني الفترة دي، محتاج أبقى مع نفسي شوية.."

أخذت راوية تبكي:

- قلتلك الرجالة كلهم زي بعض.
- إهدي بس يا راوية، الموضوع مش بسيط، أنا هتكلم معاه.
- حتى لو أتكلمت معاه أنا مش عايزاه.

****

جلستُ مع يوسف، أريد أن أفهم، لماذا لا يريد التحدث مع راوية..؟، لماذا يتهرب منها..؟، كيف يتركها هكذا..؟!

جلسنا نتحدث كتابةً، نظرا لفقداني قدراتي الخارقة في التحدث إليه و سماعه.

- إيه يا يوسف، و لا بترد على راوية، و لا بتكلمها، حتى أنا رضيت تشوفني بالعافية.

- رفعت، أنا مش عايز أتكلم ف الموضوع ده.

- يعني إيه مش عاوز تتكلم، أنت لازم تتكلم، راوية ذنبها إيه في كل إلى حصل ده.

- ذنبها إن مامتها كدابة، ذنبها أن والدي مات عشان هما بيتبلو عليه، و الست إلي اسمها عُلا دي بتدعي إن بنتها منه.

صدمني كلام يوسف،

- أنت بتقول إيه مين إللي قالك كدة..؟

- أمي، أمي إللي استحملت كتير بسبب الست دي و بنتها.. و في الآخر تتهان في بيتهم و تتطرد منه.

- يوسف أنت بتثق فيا و لا لأ.

لم يجب،

- يوسف، رد عليا بتثق فيا و لا لأ.

- أيوة طبعا يا رفعت.

لم نكمل الحديث حيث طُرق الباب.. فتحتُ الباب، لأجد ضحى، أرتبكتُ لرؤيتها، خشيتُ من رد فعل يوسف إذا رأها.

- ضحى في حاجة..؟

تعجبت الطفلة من استقبالي الجاف و قالت ببطئ

- لا.. مفيش ، ماما كانت قالتلي أن حضرتك عايزني.

- أه فعلا..

ترددتُ كثيراً و لا أدري ما عليَّ فعله، هل أدعوها للدخول..؟، هل أطلب منها أن ترحل..؟

في هذة اللحظة شعرتُ بيوسف من خلفي، وقف كل منهما ينظر للآخر، الصمت يخيم علينا، ترقرقت عيون ضحى بالدموع، رأيتُ في عينيها نظرة عتاب، نظرة شوق، نظرة إحتياج، نظرة رجاء، عيناها تقول أخي لا تتركني، أما يكفي ما عشته، أما يكفي أنني فقدتُ أمي و أبي، فقدتُ هويتي، لا أريد أن أفقد آخر شخص يجري دمه في عروقي و يختلط دمي بدمه.

رأيتُ في عيون يوسف، محاولة لإنكار شئ يشعر به، يتجاهله، يهرب منه, هو أيضا يشعر بأنها تقربه، يشعر بأنه منها و هي منه، الدم واحد، و الصُلب واحد.. لكنه يكابر، لا يريد أن يصدق أن أمه مجرد كاذبة.

طال الصمت، و لم تغادر عين أحدهما عين الأخر، تجولت عين يوسف في كل أجزاء ضحى، ظل فترة هكذا،ثم نظر مرة أخرى في عيني ضحى التى بدأت الدموع في الجري على وجنتيها.. ثم تركها و إنصرف مسرعا.

****

صعدتُ لأطمئن على ضحى، التى أخبرت والدتها بما حدث، فأصرت مديحة على أن تقوم بإجراء تحليل الحامض النووي لتثبت صدقها، و تأخذ حق طفلتها.

طلبت من مديحة أن أرى ضحى، لكنها أخبرتني بأنها تريدني بموضوع بعيدا عنها.

- خير يا مديحة..؟
- عايزة أعمل تحليل DNA.
- تحليل إيه؟!، ليه هو أنتي تعبانة..؟!
- لا يا حج، تحليل DNA ليوسف و ضحى.
- ..... .
- يا حج ده إللي هيثبت أن ضحى أخت يوسف.
- !!!!!!!!!!!!

علامات الدهشة ترتسم على ملامحي، فأنا لا أفهم حرفا مما تقوله، كيف يثبت النسب تحليل ، كيف يمكن لعينة من الدماء أن تؤكد إخوة شخصين..!

حاولت أن أتصنع الفهم، فأنا سأبدو شديد الغباء أمامها، أو ستعرف أنني قادم من زمن آخر، أو ربما كليهما.

و بالفعل توجهت برفقة مديحة إلى إحدى المعامل، و سمعنا هناك ما أحبط كل آمالنا، لقد أخبرونا أنه بدون وجود الأب لا يمكن إثبات نسب الإخوة، عدنا أنا و مديحة بخفي حنين.

حاولت الإتصال بيوسف عدة مرات، حاولت أن ألتقي به، حاولت أن أجعله يلتقي ضحى أو راوية، لكن دون جدوى، حتى علمت أنه سافر لقد ترك كل شئ و رحل، لا أدري إلى أين، أو متى سيعود إن كان سيعود من الأساس.

مرت علينا ثمان أسابيع من العذاب، مرت كأنها ثمان سنوات، لم يتصل خلالها يوسف براوية، أو حتى بي، أصبحت راوية ضعيفة شاحبة، بدأت حالتها في التدهور مرة أخرى، تبكي دوما، تصرخ أحيانا، و لا تأكل تقريبا، و لا تنام إلا قليلا.

و لم يفرق حال الصغيرة كثيرا، فهي صامتة، لا تتحدث إلا قليلا، و هي التى قال عنها الجميع أنها لسان تجسد في فتاة، لا تفرح لأي سبب، حتى عندما أغرقها في الشوكولاتة، وهي التى تعشقها، كانت تنسى الدنيا بمجرد رؤيتها لهذا الشئ الأسمر، الناعم، تبعث ضحكات تملأ الدنيا بهجة عندما تذوب في فمها قطعة الشوكولاتة إلى دقائق صغيرة، لم تعد تضحك، أو حتى تبتسم، لقد ضاعت بين أم ليست

أمها، و شقيق ليس شقيقها، و أخت لا تحاول حتى أن تبقى على قيد الأحياء.

تعذبت مديحة بين طفلتيها، تبكي حينا، تتماسك حينا، و تشكو دوماً، فهى لا تملك أحدا سوايا تتحدث إليه.

تألمت أيما ألم و أنا أرى العائلة التى تبقت لي، بعد أن تخلت عني نفسي، تنهار، حاولت كثيرا الإتصال بيوسف، أو رؤيته، لكنه رحل، هرب، سافر إلى حيث لا أعلم، لقد فعل مثلما فعلت، لقد هرب من حبه، هرب من نفسه، هرب من أخته، هرب من كل شئ، حزنت على حاله أيضاً، فهو عندما يعلم الحقيقة سيعاني مثلما أعاني الآن، لكن لن أتركه للهروب، سيعود، حتى لو سأجبره، لن أدعه يصل إلى ما وصلت إليه.

عاد يوسف، ليحيّ جرحا ما زال قائما، علمت من حارس المبنى الذي يقطنه، حيث طلبت منه أن يخبرني عند عودة يوسف، ذهبت بعد مكالمة الرجل إلى منزل يوسف، طلبت منه أن يذهب معي لمرة أخيرة، أن يرى ضحى و يستمع لمديحة مرة أخيرة، ثم يفعل ما يريده.

وافق يوسف، هو لا يدري ما الصواب و ما الخطأ، يشعر أن ضحى من دمه، لكن لا يريد أن يصدق أن أمه كاذبة، و أن والده قد تزوج عليها، جلس معي في منزل مديحة التى ذهبت لتحضر أوراقاً تخص والدة ضحى و التى قالت أنها ستثبت حديثها، مرت عدة ساعات و لم تأت مديحة، اتصلتُ بها فأخبرتني أنها في طريقها إلى المنزل، رأيتُ يوسف ينتظر، يقاتل الدقائق لكي تمر.

ما أصعب تلك اللحظات الأخيرة من الإنتظار، يمكننا أن ننتظر الدَّهر، لكن عندما نقترب تتوقف قدرتنا على الإنتظار.

وأخيرا حضرت مديحة حاملة هذا المظروف الكبير، عجباً لزمن أصبحت الأخوة فيه تقاس بالأوراق.

أخذ يوسف المظروف من مديحة، و أنا أشعر أن يوسف يتفتت، لم يعد يوسف يتمالك نفسه، استند على كتفي، أمسك الظرف بيده و كادت قواه أن تخور، أمسكت بيده حتى لا يقع، فتح المظروف بأيدي مرتعشة، نظرت مديحة ليوسف و لمعت في عينيها نظرة انتصار، في حين ظهرت على يوسف علامات أشبه بالتيه، و التخبط، و هو يرى قسيمة زواج والده من والدة ضحى، كذلك شهادة ميلاد ضحى، ((ضحى عبد السلام محمد الإتربي))

خرج يوسف لا يدري ما الخطأ و ما الصواب.

هل يمكن أن تكون هذة الطفلة أخته..؟

هل يمكن أن تكون رؤيته لراوية و حبه لها مجرد صدفة..؟

إنه القدر اختار أن يعرف أخته بعد كل هذة السنوات، أن يضمها إليه و يعطيها حناناً افتقدته، يعطيها أخاً يحميها، يخاف عليها، إنها يتيمة لا تملك من الدنيا سواه، كيف يتخلى عنها..؟، كيف يهرب من المواجهة..؟، لقد قضى حياته مجرد هروب، هرب من إعاقته، هرب من خلافات والديه، هرب من موت والده، هرب من راوية، هرب من الحقيقة، هرب من كل شئ.. عليه الآن أن يواجه الحقيقة، أمه تكذب، عليه أن يصدق، يجب ألا يتخلى عن أخته، عن حبيبته، لماذا تركها...؟، لمَّ لا يتحدث إليها..؟، لماذ لم يخبرها أنه يحبها مهما حدث..؟، ستبقى في قلبه حتى لو كذبت مديحة، لماذا لا يشفق على ضحى..؟، حتى لو لم تكن أخته فهي أخت حبيبته.. إنها أخت راوية، تربت معها، إحتضنتهما نفس الأم، ألا يجب أن يصفح لها ذنب لم تقترفه..؟، إنها السبب في لقائه بأخته الوحيدة، عليه أن يحمل لها هذا الجميل ما حيا.

لقد صدق والدته، دون أن يتحقق من الأمر، لقد ترك راوية، شك فيها، كذبها، أهانها، جرحها.

أخرج هاتفه و كتب لها رسالة " راوية، أنا آسف، أنا بحبك و هفضل أحبك مهما حصل، أرجوكي سامحيني.."

ألقت راوية هاتفها، بعد أن قرأت لها ضحى الرسالة، بينما ابتسمت ضحى، و هي تشعر بالأمل، ربما حنَّ أخوها، ربما سيعود إليها ليأخذها في أحضانه.

جلست راوية تفكر، تريد بشدة أن تسامحه، هي تحبه، و إليه تشتاق، تفكر فيه ليل نهار، ترى صورته في كل الصور، لكنه جرحها، شَّك فيها، كذَّبها، أهانتها والدته، و أهانت أمها، كيف تغفر له خطيئة، مازالت تدفع أمها ثمنها، خطيئة الشك، تلك التى ألقت بها في المشفى عمرها كله، كيف تغفر لأمه، تلك التى حرمت ضحى

من أن تعيش في حضن أخيها، هي تحبه كما أحبت أمها، و هو جرحها مثلما فعل والدها.

حضر يوسف، مختلفاً عن آخر لقاء، لقد جاء مشتاقاً و عنده لوعة.

- رفعت أنا عايزك تحكيلي كل حاجة.

قصصتُ عليه كل ما أعرفه

فقال

- أنا عايز أشوف راوية، مش راضية ترد عليا.

- راوية ، تعبانة و مصدومة و مجروحة، أنت مش عارف إنك ثبت عندها عقدة قديمة، أبوها عملها.

قصصتُ عليه مشكلة راوية مع والدها، حكيتُ له ما حدث في المشفى مع أحمد، الشئ الذي قررتُ ألا أخبره به، أخبرته أن راوية تعاني، أنها خائفة، حزينة.

طلب أن يرى ضحى

- طب ممكن أشوف أختي..؟

نظرتُ له في دهشة، هل قال " أختي"...؟

****

استعنت بعُمر، ليتسلل إلى ضحى و يحضرها لي، و بالفعل بعد عدة دقائق وجدتها تنزل برفقته، فتح لها يوسف الباب، فاستدارت ناظرة لعُمر، الذي نظر لها مشجعاً، إلتفتت مرة أخرى ليوسف الذي بللت الدموع وجهه، أخذها بين أحضانه، رفعها عاليا، لتصل إلى حلمها في أعالي السماء، بين يديه، تحتضن ما بقى من عائلتها، تحتضنها روح نبتت من نفس الأب، ظل ممسكاً بها بين يديه، و في أحضانه... نزلت دموعي و كذلك عُمر.

قلتُ و أنا أداري دموعي:

- هتفضلو واقفين عالباب كدة..؟

دخل الجميع، جلست ضحى في حضن يوسف، أخذ يمشط شعرها بيده، و أمسكت هي باليد الأخرى، تتشبث بها، تخشى أن يتخلى عنها، و يبدو أنه شعر بما تشعر به فأخذ يشد على يدها، و ضمها إلى صدره أكثر.

تركتهما، فلديهما الكثير من الأحداث ليتشاركاها..

" أنا هطلع أتكلم مع راوية، و أنتو خدو راحتكو.." كتبتها ليوسف..

أخذت عُمر و رحلت، و بينما نصعد الدرج قال عُمر

- أنا فرحان قوي عشان ضحى لقت أخوها، بس هي كدة هتنساني.

- لا يا عمور، أكيد لأ..

مفيش حد بينسى حد بيحبه عشان لقى حد تاني يحبه.

جلستُ أتحدث إلى راوية

- راوية يوسف تحت، مع ضحى.

- إيه إللى جابه، و إيه إللي يخلي ضحى تقابله، و إنت إزاي تسيبهم تحت لوحدهم.

- إهدي شوية، إيه اللي جابه جاي يشوفك و يعتذرلك، و يشوف ضحى أخته، و هما تحت لوحدهم عشان هو أخوها و من حقهم يقعدو لوحدهم.

صمتت.. و نقلت وجهها بعيدا عني

- راوية، هو عايز يشوفك، و قبل ما تقولي أي حاجة، شوفيه و اسمعيه.

- مش عايزة أشوف وشه، و لاأسمع صوته.

ضحكنا في نفس الوقت، حتى دمعت أعيننا، و أحمرت وجوهنا..

و بعد حوالي عشر دقائق من الضحك الهستيري المشترك..

ابتسمت راوية بحزن و قالت

- قال يعني هشوفه، أو هو هيتكلم.

****

بعد أن تخطيت مرحلة الفراق و البكاء والوجع و الحنين والانتظار و الشوق ، هل يمكنني اليوم أن أدخل بقدمي اليمنى إلى حدائق النسيان..!

نبال قندس

جلست ضحى تقرأ لراوية رسائل يوسف " قالوا تسلَّ عن المحبوب قلتُ بمن..؟، كيف التسلي و في الأحشاء نيران..؟، فشارب الخمر يصحو بعد سكرته، و شارب الحب طول العمر سكران.."

" أذكروني لها بكل جميل فعساها، عساها تحن عساها، و أصحبوها لتربتي، فإن عظامي تشتهي أن تدوسها قدماها.."

أرسل يوسف مئات الرسائل لراوية، قرأتها ضحى و أزادت عليها، في محاولة لتجعل قلب راوية يحن.. دون جدوى.

أغلقت راوية بابها في وجهه، و رفضت محاولاته، استسلمت لحزنها، و ألامها، و بينما هي غارقة في دموعها، سجينة في ألمها، حبيسة في ذكرياتها،

دخلت ضحى عليها

- ألحقي يا أبلة راوية.

قالت بعدم إهتمام

- في إيه يا ضحى.

- يوسف.

- ماله يوسف..؟؟

- تعبان ف المستشفى، و حالته صعبة.

- طب إنزلي إندهي لجدو رفعت بسرعة، بسرعة يا ضحى. قالتها ثم بدأت في البكاء.

ركضت ضحى مسرعة، بينما لم تستطع راوية الإنتظار، فتبعتها، حبيبها مريض، هي لا ترغب سوى في رؤيته، لم تعد غاضبة، لم تعد ترغب في شئ إلا أن تراه بخير، إذا أصابه مكروه، لن تستطيع الحياة.

كيف أمكنها أن تتركه كل هذا الوقت..؟، كيف أمكنها أن تهرب منه..؟، كيف قسى قلبها لهذة الدرجة..؟

هو الذي وقف معها في المشفى و لم يتركها، هو الذي تسبب في شفائها، و خروجها من ذلك المكان، كيف سمحت لموقف بهذه التفاهة أن يفرقهما..؟

يوسف ليس كوالدها أبدا و لن يكون..، يوسف أنقى من قابلته، يوسف يسكن قلبها و يملأ كيانها.

أخذت راوية تتحسس الأشياء من حولها حتى وصلت لباب المنزل، ثم بدأت في هبوط الدرج، تحركت ببطئ شديد، حاولت أن تضع إحدى قدميها على الدرج، هبطت درجة بعد عناء بالغ، العرق يتصبب من جبينها، دقات قلبها تتسارع، و الدموع في عينيها تتصارع لتغادرها، تلهث، تجلس في مكانها، تنتظر ضحى،

ثم تتجلى صورة يوسف أمامها، فتحاول من جديد، تضع قدمها مرة أخرى، فتنزلق هذة القدم، و تقع فردة حذائها، كما وقع حذاء سندريلا و هي تهرب من حبيبها.

فهل ستلتقي بيوسف مثلما فعلت سندريلا؟، أم أن النهايات السعيدة لا توجد إلا في الحكايا، تلك التى طالما قصتها عليها جدتها، تدور رأسها، تعج بالأفكار، و تتذكر تلك الجدة و حكاويها.

تتذكر أحاديثها عن الموت، فتشعر أن نهايتها تقترب، تتذكر أحاديثها عن الحياة، فتكتشف أنها لم تحظ بتلك التى تدعى حياة إلا مع يوسف.

تحاول التشبث، تريد أن تراه مرة أخيرة، تريد تلك الحياة التى لم تتذوق منها إلا القليل، تريد أن تعيش ما بقي منها إلى جواره، فتدور رأسها من جديد، عجباً لها، ها هي تتشبث بحياة، تمنت يوما أن تفارقها و أبت، و عندما قررت لها الحياة أن ترحل، تتمسك بها، عجباً لحياة لا تترك إلا من يريدها.

تحاول أكثر، حتى تخرج آخر قطرة ماء في جسدها الضئيل، تثبت قدميها بكلما أوتيت من رغبة في البقاء، تصارع قدرها، فتخونها القدم و تلتوي ثم تدحرج على الدرج، ككرة فقدت ما بها من هواء و ظل الإطار الخارجي هشاً ضعيفا تذروه الرياح ، تأخذها

الجاذبية، لتعود إلى وطن يتحرق شوقا لها، جذبتها غير مبالية بنظرات الخوف

في عينيها، بصرخات الرعب في أعماقها، تبحث الأرض عن زائر جديد، و يبحث الموت عن عروس جديدة، و ما أنسبها لكليهما..!

تستجيب لقدرها، و تستسلم لنهايتها، حتى تستقر في مدخل البيت... مغشيا عليها، و الدماء تقطر من رأسها و أذنها.

****

- يوسف، يوسف. قالتها راوية و هي تفتح عينيها.. لتجد نفسها نائمة على فراش أبيض في المشفى.

وجدت يوسف يمسك بيديها، نظرت تجاهه و ابتسمت، ثم صرخت

- إيه ده أنا بشوف.. و الله بشوف، رفعت..!، هو أنت رجعت تاني.

نقلت بصرها بين كل الموجودين، هي تراهم جميعاً، ترى أمها لقد كبرت كثيراً و خطت التجاعيد وجهها، و ألقى الزمن بمصائبه عليها، يبدو عليها التعب، تبدو عليها المعاناة..

ترى ضحى الصغيرة لأول مرة، ترى يوسف، حبيبها هو كما تخيلته تماما، يشبه الأطفال في برائته، ترى رفعت، يشبه رفعت الذي تعرفه مع بعض التغيرات الناجمة عن العمر.

ظلت تحدق في الجميع، و دموعها تغشي عينيها، و الدموع تشق طريقها في وجوه الجميع.

قالت مديحة و هي تبكي

- بجد يا راوية بتشوفي..؟

أمسك يوسف على يدها و هو يبكي و نظر لها مستفهما فأومأت له برأسها.

ركضت ضحى و ألقت بنفسها في أحضان راوية:

- أنتي شايفاني يا أبلة راوية.

بينما وقفتُ مصدوما، أخشى كثيراً، أن ما يحدث معها شئ خارقٌ أخر، أخاف كثيرا، أن تكون حالة مؤقتة،و تزول، أخاف من صدمتها.. فذهبتُ لإحضار الطبيب.

هنا أوقفتني راوية و قالت

- أنا بشوف بجد يا رفعت، شايفاكو كلكو.. أنا بشوف، الحمد لله يارب.

ثم سجدت لله شكرا، و خروا جميعا سجدا، فسجدتُ معهم، ثم أنطلقتُ لإحضار الطبيب.

سبحان الله، قادر على كل شئ، لقد إستعادت راوية بصرها، بنفس الطريقة التى فقدتها بها..

لقد عادت لها الحياة، مثلما سُلبت منها من قبل.

أكد الطبيب أن راوية ترى.. أكد أنها بخير، و يمكنها الخروج من المشفى.

قالت راوية و كأنها أدركت شيئا ما للتو

- إيه ده أنت مش كنت تعبان يا يوسف..؟

أنتبهنا جميعا لتلك الخدعة التى أبتكرناها لكي نجعل راوية تسامح يوسف، لم نكن ندرك أنها ستكون السبب في استعادة بصرها.

كتب لها يوسف " لو حصلك حاجة مكنتش هسامح نفسي، لما عرفت أنك وقعتي بسببي كنت هموت، الحمد لله.. الحمد لله.." ثم غمز لها و حرك شفتيه هامسا

- بحبك

ابتسمت خجلا ثم حركت شفتيها هي الأخرى

- و أنا كمان.

- سامحتيني..؟

أومأت برأسها...

للمرة الثانية يجلس يوسف في منزل راوية، ليطلب يدها، و يبدو أن كل زواج سأحضره، يجب أن يتم على مرتين... بدءا من طلبي ليد فريدة، و كأنها لعنة تنتقل مني لكل من حولي.

كانت وفاء هذة المرة، إنسانة مختلفة، تخلت عن عجرفتها و تكبرها، بعد أن واجهها يوسف بكذبتها، و أخبرها بأنه لن يتخلى عن أخته، وأنه سيتزوج راوية شاءت أم أبيت.

كذلك غضت مديحة الطرف عما بدر من والدة يوسف، و أختارت سعادة ابنتها، بعد أن رفضت راوية محاولاتها لإقناعها بأنها الآن ترى، ليس عليها أن تربط مستقبلها بمستقبل شخص معاق.

- يعني لما كنت عامية، وافقتي، مع أن من حقه أنه يتجوز واحدة تساعده مش يشيل همها على همه، و دلوقتي مش راضية، أنا مش هتخلى عن يوسف أبدا، هو السبب إللي رجعني للدنيا.

في الواحد و الثلاثين من يناير عام 2012

تمت مراسم الزواج، الآن يضم العروسان منزل واحد، يظللهما سقف واحد، تغمرهما السعادة، و تنتظرهما حياة واحدة، لقد تعلما التواصل سوياً و لم يعودا بحاجتي أبدا.

تعلمت راوية لغة الإشارة، و لم تكن أبدا بحاجاتها فهي تفهم يوسف و يفهما دون الحاجة للحديث، يكفي أن ينظر كل منهما في عين الأخر.

.....

عدت للمنزل و السعادة تملؤني، لقد تزوج الحبيبان، أشعر أنني فعلت ما توجب عليا فعله، خلدتُ لنوم عميق، و الإبتسامة لم تفارق وجهي.

استيقظت من نومي على صوت صرخات، الجميع يبكي، و الدة عمر واقعة أرضاً منهارة لا تحملها قدمها، لقد رحل عمر، خرج ليشاهد مبارة كرة قدم، فعاد محمولا، هنا أم مكلومة لفقدان فلذة كبدها، طفلها الوحيد، لا تمتلك من الدنيا سواه بعد أن رحل والده، هو كل عائلتها، كم تمنت أن تراه يكبر أمام عينيها، أن يدخل الجامعة، أن تحضر حفل تخرجه، عاشت لكي تراه في حلته يزف عريسا، ها هو يزف إلى قبره، و هنا طفلة تبكي على فراق صديق و أخ.. كاد أن يكون حبيباً، أصدقاء ثائرون،

راغبون في الأخذ بالثأر، أرى الدماء محتقنة في وجوههم، أرى عيونهم تطلق نيران الغضب الذي أختلط بالألم، فأصبح قادرا على تحطيم كل شئ، يا تُرى ماذا تخبئ لنا الأيام..؟

- أنا إللي وافقت أنه يسافر بورسعيد، يا ريتني منعتك يا ابني، يا ريتني ما وافقت.. قالتها والدة عمر و هي تبكي

- أهدي يا حاجة، وحدي الله..
- و الله لنأخد بحقك يا عمر، لو هنقتلهم كلهم. قالها أحد أصدقاء عمر.

لا أفهم شيئاً، لقد توفي عُمر، فهذا قدره، لقد مات و هو طفل فهذا عمره، لكن أن يموت مقتولاً..!، لماذا قتلوه..؟، لماذا حرموه حقه في الحياة..؟، هل أذنب عندما مارس طفولته..؟، هل يستحق القتل لأنه يشجع فريقه..؟، ربما مجرد وجوده على قيد الحياة ذنب..!

لم أعد أعرف شيئاً سوى أن عمر قد رحل..

****

" أنا العاشق السيئ الحظ

لا أستطيع الذهاب إليك،

ولا أستطيع الرجوع إليّ

تمرد قلبي عليّ "

محمود درويش

مرت الأيام ثقيلة، مثقلة بالحزن، جلستُ أفكر، و استعيد ما حدث معي منذ كنت في الحرب، الشوق يمزقني، و الذنب يقتلني، و نيران الحب تلتهم أحشائي، أريد أن أراها، أريد أن أنال نظرة من عينيها، أحتاج كثيرا لسماع كلمة منها، ليتني أحظى بحضنها ثم أموت، ليتني أتذوق شفتيها لمرة أخيرة، لقد حُرمت من الحياة معها، أريد أن أحظى بالموت في أحضانها.

وقفتُ ببابها، أتمنى أن تسامحني، أن تقبل بي، أن تكمل حياة لم أحظَ بها، لقد مرت أربعون سنة من حياتي، لم أحياها لأنها لم تكن معي، لم أنل شرف الشهادة كما تمنيتُ من قبل، فليتني أنال شرف الموت بين يديها.

فتحت باب الرحمة في وجهي

- رفعت..!

- فريدة..

أرتبكت ثم وضعت يدها على رأسها و كأنها تحاول أن تعدل من هندامها، نظرت لملابسها، ثم نظرت تجاهي ثانيا، رأيتها ترتدي جلبابا منزليا بدت فيه أميرة في فستانها، بدت ملكة في حلتها، جميلة هي دائما، و ستظل حتى لو أصبح عمرها مائة عام، شابة

هي حتى لو أبيض شعر رأسها كله، رائعة هي حتى لو ارتدت قطعة من خيش.

تمنيتُ أن أُلقى بنفسي في أحضانها طفلاً عائداً لأمه، رجل يتمرغ في تراب وطنه، عاصيا يطمع في رحمتها، تائباً يتضرع في حرم حبها، ميتاً يتعلق بآخر أمل في الحياة.

- رفعت إيه إلي جابك..؟ قصدي يعني ف حاجة حصلت..؟

- فريدة، تتجوزيني..؟

كلمة تتزوجيني هي أول كلمة نطقت بها أمام فريدة، و كذلك هي الأخيرة..!

لقد رفضتني فريدة كما يرفض الجسد عضواً لا يتوافق معه، لكنني جزء منها، لا يحيا إلا بوجودها، كيف يمكن أن تلفظني..؟، رفضت عودتي، لماذا..؟، هل ترفض الأم وليدها إذا أخطأ؟، هل تتخلى الأوطان عن أبنائها..؟، هل للحب عمر كما قالت..؟، أم أنها لم تسامحني..؟

قالت فات العمر، ليس مقدرا لنا أن نكون سويا، كيف تتهم القدر..؟، و هي التى ترفض عودتنا، لو وافقت لن يعترض القدر، ليتني كنت هنا، ليتني حضرتُ لحظة فراقنا فمنعتها، لو شهدتُ

تلك اللحظة التى أفترقت فيها يدانا، لظللتُ ممسكا بيدها لآخر لحظة من عمري.

لقد تسبب القدر في فراقنا في المرة السابق، و رأى الجميع أنني المسئول، لكنك السبب هذة المرة، أنت يا فريدة، و ها أنت تلقين بالذنب على القدر.

حُرمت من حقي في إختيار مقبرتي، و مسكني الأخير.

دخلتُ شقتي، رأيتها بشكل مختلف، وقفتُ أمام المرآة رأيتُ شكلي الجديد، أمعنتُ النظر، فتشتُ في ذكرياتي، صوري، رأيتُ صور زفافي من جديد، أمعنتُ النظر في وجه زوجتي، أشعر بالندم على كل ما فعلته تجاهها و تجاه أبي و أمي.

حمدتُ الله أنني لم أعش تلك الأحداث، لقد رحمني الله أن أرى نفسي هكذا، ها أنا سعيد بتلك السنوات الضائعة كما لم أفرح من قبل، لو عشتُ حدثاً واحدا من تلك الأحداث لفكرتُ في قتل نفسي، أو ربما قتلتها بالفعل، لقد كرهتُ نفسي كثيرا، و عزائي الوحيد هو أنني لم أكن موجوداً.

فكرتُ كثيراً هل يمكن أن أعود لماضيَّ مرة أخرى..؟، هل ستمضي سنوات عمري هكذا دون أن أشعر بها..؟

ألن أعود ، ألن أجد الفرصة لتصحيح أخطاء فعلتها دون أن أفعلها..؟، لكن لو عاد الزمن ما الذي يضمن لي أنني لا أعيد نفس الأخطاء بكل تفاصيلها..؟

فكرتُ كثيراً و كثيراً في سبب وجودي هنا، السبب الذي يجعلني آتى في هذا التوقيت، شعرتُ بضرورة وجودي، لقد أنقذت راوية، لقد ساعدتُ يوسف و كذلك نفسي.

فكرتُ ربما لو خضتُ حربا ثانية أعود لعالمي من جديد أعود لعام 1973، أعود شاباً في الخامسة و العشرين، أصحح أخطاءً ما ارتكبتها أو بالأحرى أمنعها من الحدوث.

أريد حربا تعيدني، فأمنع كل ما فعلته من آثام، صرتُ أعلم جيدا عاقبتها،

أريد حربا أسترد منها نفسي،

أريد حربا أستعيد من خلالها أبي و أمي،

أريد حربا أتزوج فيها حبيبتي،

أريد حربا أستعيد فيها شبابي،

أريد حربا لا أظلم فيها امرأة أخرى.

لا أحد يستطيع تغيير الماضي، لذلك أريد حربا، حتى يصبح الماضي حاضرا، و الحاضر مستقبل لم يتشكل بعد، فأعيد صياغته مع تلافي الأخطاء.

أريد حربا..!

ألن أعود ، ألن أجد الفرصة لتصحيح أخطاء فعلتها دون أن أفعلها..؟، لكن لو عاد الزمن ما الذي يضمن لي أنني لا أعيد نفس الأخطاء بكل تفاصيلها..؟